مذكرات فتاة سورية

ليتنا لم نلتق

مذكرات فتاة سورية

القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع/ القاهرة: ٢٠١٧.
١٢٠ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٤-٦٠-٦٥٠٢-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢٥٢٠٧

دار النشـــــر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـــاب: ليتنا لم نلتق
الكاتـــــب: خلود هاشم
تاريخ الطبـــع: ٢٠١٧
تصحيح لغـــوي: عمر جوبا
تنسيق داخلـــي: سمر محمد
تصميم الغـــلاف: محمود سليمان
إشراف عـــــام: محمد المصري

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

elrasm.blkalemaat
elrsmblklemat@yahoo.com
01061419555

مذكرات فتاة سورية

ليتنا لم نلتق

(رواية)

خلود هاشم

إهـــــــداء

إلى كل أولئك الذين اختلفوا حول مفهوم الوطن. .

إلى وطن غادرته ولم يغادرني . .

إلى تلك المسافات البعيدة التي كوت قلبي بالبعد، فعلمتني حسن الكتابة. .

ودوماً إلى أمي. .أمي التي تبقى معي أينما كانت. .

منذ أربع سنوات تماماً، وحينما سمعت لأوّل مرة أصوات القصف تملأ الدنيا .

حينما سمعت أصوات المآذن تكبر، والنّاس من تحت شباك بيتي تكبّر .

عندما ضممت أولادي إلى صدري، وأنا أسمع المنادي في المسجد يقول

(يا لطيف الطف بنا . . . . يا لطيف الطف بنا) . .

عندما سمعته ينادي أنّ الأكفان قد نفذت، وأنهم يحتاجون إلى ملاءاتٍ بيضاء عوضاً عنها . . .

عندما رأيتُ للمرة الأولى أشلاء بشرية حقيقة، وليست ضمن فيلم رعب . . .

عندما عرفتُ للمرة الأولى ما معنى أن تخسر الحياة . . .

ما معنى أن يقف الموت بعيداً عنك بمسافة دبابة . . .

عندما جربتُ كأمّ أن أقف عاجزة أمام واجبي، بإعطاء أولادي شعور الأمان . .

حينما ترتعد ابنتي بين يديّ تبكي . .

وأنا لا شيء أفعله سوى عناقها عناقاً، لا يستطيع أن يحجب عن أذنيها الصغيرتين بشاعة أصوات الانفجارات . .

ورعب الصّراخ والبكاء . . .

حينما لا أجد وسيلةً، لمنع رائحة الموت والدماء من اختراق حواسها الصغيرة. .

حينما أقول لها وبكلّ ثقةٍ لا تخافي . .

– نحن إن متنا سنذهب إلى الجنة. .

فتضحك ضحكة خوف وألم : –

– سنشاهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هناك ؟

– إن شاء الله يا صغيرتي . .

– وألعابي ستذهب معنا للجنة أيضاً ؟ أم أن الألعاب لا تذهب إلى هناك ؟

ماذا لو كنت تعلمين يا بنتي أنك أنت وأمك وأباك وأهلك، وكل سكان البلاد مجرد لعبة سهلة في أيدي أناس لا تخاف الله . . .

كم هو مرّ شعور أن تتأمل وجوه الناس من حولك وهي ترتعد خوفاً . .

وما أصعبها من لحظاتٍ تلك اللحظات، التي تنتظر فيها حتفك . .

فيخطئك الموت، لتكمل حياتك ميتاً أساساً، لكن مع خفقة قلب، كنت أرى بيتي، وقد تحول إلى ملجأٍ، لكلّ سكان العمارة لكونه الطابق الأول . . .

كنت أرى بمعنى الكلمة حياة، وموت أمام عيناي يتصارعان علينا، ويحاول كل منهما أن يخطفنا من الآخر، ما كلّ هذا الذي حدث ؟

كان ما حدث هائلاً جداً، وكما درست في كتبي، أنّ لكلّ فعلٍ هناك ردّة فعل، تساويه في القيمة تعاكسه بالإتجاه، ووفقاً لنظرية الفيزياء، تلك التي يعتبرها الجميع مسلمة بديهية، كان لا بد من أن تقوم الدنيا ولا تقعد .

أو لسنا بشراً ؟ ألا يجب أن يكون هناك ردّة فعل تجاه ما يحدث فينا ؟

أليس من المفروض أنّ لنا في هذه الدنيا، أخوة في الدين وأخوة في العروبة .

وأنّه هناك الكثير من الناس التي تؤمن بالقضايا الإنسانية .

كانت ردّة الفعل تلك من المفترض، أن تكون سيلاً جارفاً، يمحو هول ما حدث ويصفع الظلم صفعة تعيده من حيث أتى، وتنصب الحق والعدل سيداً للمشهد .

لكن ما حدث صفعنا نحن صفقة كبيرة، رمت بنا لاجئين مغتربين. أو شهداء تحت الثّرى، كنت حينها أتوق كثيراً، لأن أستطع الوصول إلى العالم خارج بلدتي، ذاكَ العالم البعيد رغم قربه .

لا أعرف ما الذي يحدث هناك ؟

لكنّي خمنت أنّ العرب و المجتمع الدولي والبشرية، بأسرها قد تظاهرت لنصرتنا .

فما حصل حقاً يستحق ذلك .

ومهما كتبت هنا، ومهما حكيت يبقى كلّ شيء صغيراً وبسيطاً، أمام هول اللحظات تلك .

من منّا يستطيع أن يصور شعوره، وهو ينتظر الموت ؟.

أيّ امرأة تستطيع أن تكتب عن شعورها، وهي تدعو الله أن يأخذها إليه ، إن ما أراد أحداً بها سوءاً ؟

لكن ذلك كان محالاً وقتها، فلا أستطيع معرفة الذي يحصل، فقد كنّا في عالمٍ آخر.

لا ماء، لا كهرباء، لا اتصالات، فقط دبابات تدك أسوار غوطتنا .

أصوات قصف ورائحة بارود تخنق،لكنّي أدركت اليوم أنّ في رائحة البارود، تلك أكسجين يفوق أضعاف الأكسجين الموجود في هواء الغربة .

الغربة التي تخنقك دون أن يلحظ أحد أنّها تغتالك، الغربة التي ربما يحسدك عليها من بقي هناك،وأنت في غربتك تحسده أنه لا زال في وطنه . .

أيّ منّا مثير للشفقة أكثر ؟

أي منا دفع الثمن الأكبر، وأيّ منّا كان على صواب ؟

من اختار البقاء وعنّاء تحمل عواقبه ؟

من رأى أطفاله يتقطع لحمها الطري، وهي تخرج من تحت أنقاض القصف .

أم من خاف وقرر أن ينجو بروحه، وظلّ في الغربة يتحمل شقائها وعنائها وذلها

أتدرون ما الوجع في الغربة ؟ .

أن يكون نسبك يصل إلى سابع سماء، ثم يرفق آخر اسمك بكلمة لاجئ .

لكن (المصيبة) كانت أنني، عندما استطعت بعد جهد جهيد مشاهدة التلفاز، بعد حصولي على رفاهية (المولدة الكهربائية)، وجدت كلّ ما حدث يذكر بصيغة الأرقام !!.

أرقاماً فقط ليس إلا، يا إلهي، يا الله، رحماكَ رباه، رحماكَ يا ربي ..

هل أطفالنا مجرد أرقام ؟؟

وهل كانت أرقام الشهداء، بحسب أعدادهم أم بحسب أعداد أشلائهم .

والله لسنا أرقاماً ..

والله لسنا أرقاماً ..

والله لسنا أرقاماً ..

هل شاب في ربيع العشرين من عمره طبيب مستقبلي، شاب يضجّ حياة مجرد رقم؟

وهل أب لخمسة أطفال وزوج لجميلة حلوة العينين، يموت تاركاً خلفه أسرة يتيمة مجرد رقم ؟؟ . .

وهل أنا وأولادي وعائلتي، كان من الممكن أن نتحول إلى رقم ضمن أرقام الضحايا ؟ . .

على كلٍّ بعضنا تحول إلى أرقام على شاشات التلفزة، والآخر تحول إلى أرقام موجعة على بطاقات اللجوء .

ليتخيل كلّ منّا أنه في هذه الدنيا مجرد رقم، رقم يظهر على شاشات التلفزة، ضمن أرقام كثيرة .

وأن كلّ حياته وأحلامه ومستقبله تحولوا إلى رقم، رقم بائس ليس إلّا، سحقاً للأرقام، وسحقا لنظرية الأصفار .

تلك النظرية التي تصف أصفاراً كثيرة إلى يمين الرقم، أن لم يكن القتيل عربياً، حينما رأيت أنّ كلّ دموعي وكلّ صراخ أطفال الحي .

وكلّ ذلك الذل والعذاب، لم يكن إلا عشر دقائق في نشرة إخبارية، وأن باقي الدنيا تعيش بسلام، وكأنّ كلّ الذي كان، ما كان .

صدمت الصدمة الأولى، أين كلّ مبادئنا ؟

ومنذ متى أندثرت إنسانيتنا، ومات الضمير فينا ؟ ثمّ هل تموت الضمائر ؟

أحداث مؤلمة كثيرة وصمّت وخذلان يؤلمان أكثر، ولا شيء حدث، وكأنّ مخرج مسرحيتنا، قد قرر أن يكون الوجع بطل المشهد وأنّ الإنسانية ، والتعاون لن يكونا إلا كومبارس .

(غير صورة بروفايلك) . .

اضطررت أن أترك جامعتي أحلامي، ذكريات طفولتي .

بيتي الذي عشت فيه، والشارع الذي طالما لعبت فيه، وأراه اليوم مجرد ركام من غير أبنية تحيطه .

وهربتُ إلى المنفى ، لا أعرف لمَ لمْ أبقى، لكنني خفت، خفتُ أن ينحر أطفالي أمام عيني .

ربما كان ذلك جبناً ربما كان خطأ أو خوف،لكنّه والله لم يكن تنازلاً عن الوطن .

لم يكن من السهل علي أنا ، أو أيّ شخص من أولئك الذين غادروا الوطن، أن يتخذوا قرار السفر بهذه البساطة .

أبهذه البساطة يتخذ الواحد منّا قرار السفر، ويحزم حقائبه، ويمضي تارك وراءه كلّ شيء .

وما هول الرعب الذي رأيناه، حتّى قررنا التخلي عن كلّ حياتنا المرتبطة بأرضنا، وأن نمضي في حياةٍ غريبة .

رأينا ما يكفينا من مشاهد الرعب هناك .

و لا أظن أنّ كلّ أفلام الرعب في الدنيا، تستطيع أن تصل إلى ربع المستوى، الذي رأيته في بلاد الأمان سوريا .

جئتُ هنا إلى (مصر)، أمّ الدنيا . . . . . بلد (الطيبة والجدعنة) .

بالرغم من أنّ كلّ ما في مصر جميل،طيبة أهلها، وحسن معاملتهم، وحبهم الشديد لنا .

بالرغم من (حنيتها وطبطبتها علينا)،إلا أنّني لمْ أستطعْ أن أراها أمّي .

فأمّي سوريا، هناك تغتال وتُغتصب .

وأنا ها هنا هاربة من رعبٍ وقتل واضطهاد، خفتُ أن يصيب أحد الغوالي على قلبي .

ما كنت يوماً لأستطيع أن أتحمل شقاء غربتي، أنا التي أعشق الشام، أنا التي لي مع قاسيون حكاية حب، ولي في بردى ذكريات طفولة .

وفي الفرات أحلام صباي .

أنا الدمشقية في عروقي الياسمين، جدّي صلاح الدين، وفي حروفي نزار .

هويتي ريف دمشق، وفي قلبي حلب الجريحة مزروعة، وفي صميميم روحي نواعير حماة تعاتبني .

وفي سواد عيوني سويداء بجمال كحلها تزينني .

أنا ابنة الوليد في خضم قلبي حمص، التي ما ارتكب في الكون مجازر مثلما ارتكب بها .

بين ضلوعي ادلب الخضراء، تخضب بالأمل دمي، وعلى شواطئ عيني ترسو طرطوس وبانياس و لاذقية .

وفي فؤادي جسر دير الزور، يصل شتات روحي، وفي كياني حسكة وقامشلي تقيمان أعراس الفرح .

وفي جعبتي قاموس ما كانت رقته يوماً إلا صموداً، وفي حكاية البطولة الأولى درعاً تبقى شامخة، تأبى أن تنكسر .

أنا التي في تضاريس روحي، جامع أموي وسوق حميدية، لكن مصر كانت حنونة، وضمّدت جروح غربتي .

وأحياناً تضميد الجراح لا يشفيها، إنّما يحمي قلوبنا من البتر .

كانت أيامي في الغربة روتينية بسيطة مؤلمة .

عبارة عن فتراتٍ من نشرات الأخبار، التي تعتبر الطريقة الوحيدة لأعرف ما الذي يحدث هناك في وطني الذ ي صار عني بعيد ؟

لم يكن هناك وسيلة للإطمئنان غيره، وذلك بعد أن قطعت كلّ وسائل الإتصال هناك، وبات من الصعب جداً أن أطمئن، أو أسمع أصوات أناس كانوا لي في السابق روتين حياة .

استيقظت في حين يوم غريب كأيام غربتي، أتفقد أرقامنا وأدعو الله أن لا يتجاوز عدد الشهداء الخمسين شهيداً .

طبعاً هذا إن لم يكنْ هناك مجزرة يفوق ضحاياها المئات، لكنّ العدد يومها صعقني.

ألف وخمسمائة شهيد !!!!

لم أستطعْ أن أستوعب العدد.

ألف وخمسمائة حكاية، سطرت نهايتها بشاعة غاز كيماويّ سام، في أرض فسطاط المسلمين .

لكن الحكايات كلها كانت في بداياتها، أكثر من نصف الشهداء أطفال ورضّع .

طفل ينتفض جسمه بالغاز الكيماوي، طفل عبثاً يحاول أن يدخل الهواء إلى رئتيه الصغيرة، لكنه لا يستطيع، فيموت تاركاً لنا عار الخذلان .

غوطتي، ريحانة صباي، و ووردة عمري التي لا تذبل، جنتي الحلوة التي أيقن تماماً، أنّ الذي لم يرْ ربيعها، لا زال عن سحر الربيع أعمى .

يا الله، ألف وخمسمائة شخص يموتون هكذا وبكلّ بساطةٍ، وفي يومٍ واحد !!

وصديقة لي هناك في سوريا تقول لي (قال المؤذن في المسجد من كان يريد الموت خنقاً، فلينزل إلى الملاجىء، ومن يريد الموت قصفاً، فليصعد إلى الأسطحة) .

غازات كيماوية سامة، تتركز في طبقات الجو السفلى، وصواريخ تدكّ الأماكن العالية .

ولك مطلق الحرية أن تختار سبيل موتك .

وأنا وأنت، ها هنا . . .لا شىء نفعله. . . .لا شىء . . . .

نبكي ونقول حرام، هذا طبعاً إن بكينا ،وربّي أشعر أحيانا بأنّنا نحن المجرمون .

نحن الذين نقبل أن نتابع حياتنا بسلام، وهناك في مكانٍ ما، على هذه الأرض تموت الناس، وتُراق دمائها بكلّ برود .

لا أعرف كيف استطعنا تجاوز كلّ الذي حصل دون أي ردة فعل ؟

لكنه ببساطة استطاع أن يمر، كنسمة في وقتٍ أحتاج فيه، أن يكون ريحاً صرصراً.

من يومها لم أعدْ أتابع نشرات الأخبار، أو أهتم بها، لأنّني بتّ أدرك جيداً، أنّ كلّ الذي سأراه سيحفر في قلبي، دون أن أستطيع فعل شيء سوى الدعاء .

باتتْ نشرات الأخبار بالنسبة لي، مجرد سلع يتاجر بها تجار الحروب، ليقبضوا لأوجاعنا ثمناً أكبر .

لذا اكتفيت بالدعاء، دون أن أرى وجع وقهر وطني بعيني، ليس لأنّني لم أعدْ مهتمة، حاشا لله أن أنسى وطناً، يحتل مساحات روحي كاملة .

وكيف لا أهتم، وأنا أرى روحي لا زالتْ هناك معلقة، تأبى الخروج من وطنٍ تعشقه .

فتعيش روحي تائهة هناك، وأعيش أنا هنا جسد من دون روح، لكن ماعاد في روحي طاقة، كي ترى كل كمية الألم هذه .

أن تشاهد وطنك من خلف شاشةٍ، ولوحة مفاتيح غبية، شيء يعذب روحك وينهشها .

وكانت أوصال روحي ممزقة، كنت خائفة من أن تنفصل عن بعضها، وأنا هنا في غربتي .

فتوقفت عن تعذيبها برؤية ما يؤلم، لكنّي و الله لم أتوقف عن الدعاء يوماً .

وعند الله دعواتي تلك لا تضيع، لكن هناك أموراً كثيرة تجبرك على أن تراها .

حتّى وإن كانت رؤياها توجعك، ما كنت أعرف ما الذي يجب عليّ فعله، وأنا أرى شهباء سوريا تقتل .

هل أبكي إذا ما شاهدت طفلاً سُحقت جمجمته، تحت أنقاض بيته ؟ .

هل أشهق حينما أرى في السماء قذائف نارية تسبح فيها، حتّى إذا ما لامست الأرض أحالتها بركاناً مشتعلاً .

وكيف لا أخجل وأنا أرى امرأة، تخرج بكامل حجابها من تحت الأنقاض، ونحن في زمن الكاسيات العاريات ؟ .

وكيف أرى حلب تُباد وتحترق، وأنا لا شيء أستطيع فعله سوى #هاشتاج سخيف، لو علم به أهلنا القابعين في حلب تحت القصف، لضحكوا من فرط خيبتهم بنا .

كنت أريد أن أكتب كثيراً، عن وطنٍ قُتل و لا زال ينبض بالحياة .

أريد أن أكتب عن كروم الزيتون، وعرائش الياسمين والعنب، عن خمائل الورد الجوري، وعن بحرة البيت العتيق،عن بلاط حديقة منزلنا الملون .

أردتُ أن أكتب عن كلّ ما في قلبي، لكن ما في قلبي كان أكبر وأصعب من أن تسعه سطور .

و لم أجدْ نفسي امرأة صالحة، لأن تكتب مذكراتها .

وأنا التي أخترت أن أهرب .

لا يحقّ لي أن أكتب عن نفسي كثيراً، لكنّني كتبت عن أشخاصٍ هناك، ربما كانوا هم فعلاً هناك، وليس فقط ضمن سطور صفحاتي .

كتبتُ مذكرات حبيبة بقلمي، واغتلتُ غالي فيها، لأنه لم يستطعْ أن يعيش معي إلى آخرِ نبضةٍ في الرواية .

اتعبته الحقيقة التي كانت يخفيها عن نفسه، ضاقتْ به أوراقي، كما ضاقتْ به انسانيته .

وهنا انتهى قلمي، وبدأت حبيبة تقصّ عليكم قصتها .

حكاية لم تستطعْ هي، ولن أستطع أنا أن نكملها .

لأنّه هناك دوماً قصص تفوق قدراتنا، ولأنّه هناك أحداث وأمور، لا تسعها أوراق أو شاشات تلفزة .

تماماً كتلك التي تحصل في سوريا، هناك أوجاع يعيشها أصحابها فقط، لأنّها أكبر من أن تصل إلى غيرهم .

ولأنّي أدرك هذا جيداً، ولأن حبيبة أيضاً تدركه، قررنا أن نكتب القسم الأصغر ونترك لكم أنتم الباقي .

كي تكونوا أنتم الحكم في زمنٍ ساء حكامه .

خلود . . . .

...

حبيبة

لا زلت هنا يا سيدي، أسأل نفسي منذ نصف قرن، هل كان يجب أن أطلق رصاصة قاتلة من مسدس الأنانية، لأقتل بها ذاك الضمير، الذي كان سبباً في قتلك يوماً ؟؟ .

ماذا لو استطعت أنت حينها، أن تقتلع كلّ تلك السموم السوداء عن الوطن؟؟؟.

وزرعت عوضاً عنها بذور رحمة و طيبة، تفهمها أنت بشكلٍ خاطئ ، أو ماذا لو أننا لم نلتقْ .

كان من الممكن أن تكون أنت اليوم غنياً ، من أحدٍ أغنياء العرب في أوروبا ، أولئك الذين طالما يربحون رؤوس أموالهم من صفقاتٍ وهمية، يشترون فيها الأسماء الكبرى في السياسة، ويبيعون الوطن .

وما كان لشبح الموت و الألم، أن يكون رفيق دربي منذ افترقنا .

يخيّل إليّ أنّ رفيق دربي، سيكون شاباً أجمل منك، يمتلك أفكاراً تناسب أفكاري

(و ينتمي في وطنيته إلى وطنيتي) .

كان من الممكن أن يكون عندي اليوم أطفال كُثُر يمرحون حولي، ولا يتركون لي وقتاً للحزن أو الكتابة .

لكن إن حدث كلّ الذي تمنيت في أمنياتي ، بأن لا نلتق ، ما كان لنشوة الحب أن تسكن كلّ ليلٍ ارتشفته منذ التقينا إلى ساعة موتك .

كثيراً ما تمنيت قبلاً، أن أكون بطلة قصة عشق، تجعلني أختبئ خلف ضحكاتها و دموعها بعيداً عن واقع الحياة، الذي طالما رفضته .

كنت دوماً أحسد ليلى و عبلة و بثينة .

مغرمة أنا بالحبّ العذري، لكن خوفي من عدم وجوده، حال بيني وبين تجارب الحبّ .

وحدك أنت الذي جعلتني أؤمن بالحبّ من جديد، عشنا قصة حب تفوق فيها وجعنا على عشقنا .

عشنا حياة لم تكن حياة، بل شيئاً أكبر وأوسع من الحياة، لكنّك اخترت الموت، لذلك فرقتنا الحياة. .

لا أقصد هنا الموت الذي يعرفه الناس، فكثير منّا ميتون يمشون على الأرض. .

كلّ شخصٍ يحيي بلا ضمير، هو شخص ميت .

كلّ انسان يقبل أن يكتفي بالصمت، لمواجهة الظلم هو ميت، بالله عد لي ؟ .

كم من الأحياء على الأرض، قلة قليلون هم والله، والباقي ميتون، مجرد أجسام تمشي وتتنفس فقط، لأنّ الموت العلني لم يزرها .

من لم يكن منّا على قيد قضيةٍ، أو حلم أو مبدأ، من لم يشعر بمعاناة الآخرين، من لم يحاول أن يفعل ما يستطيع لمساندتهم، ليس حياً .

وكم تحتاج الحياة بالرغم من عدد البشر الهائل فيها، الذي قد تخطّى المليارات إلى أحياء .

عجباً رغم كلّ ذلك العدد، ما أقلّهم الأحياء فيها ! ما أقلّهم !

عشتُ معك قصة كانت في بداياتها تشبه الجنة .

لكن لم يكن بمخيّلتنا أنا أو أنت، أنّ قصتنا تلك ستنتهي بك قتيلاً، وستنتهي بي عاشقة نصف مجنونة خانتْ أحلامها، لأجل الوطن .

وطناً لم يقدم لنا يوماً إلّا الفرح، صحيح أنّه يضطهد انسانيتنا أحياناً، لكنّه مجبر، ليس لديه حيلة تجاه الذي احتله بالرياء .

يصعب عليّ اليوم أن أصدق، أنّ وطناً لم يحمل في قلبه لنا إلا الحبّ . . . .

يرمينا اليوم في كلّ أصقاع الدنيا ، لاجئين مغتربين .

ويرمي بالأسعد حظاً شهداء تحت الثرى، شهداء لا يعلم أحد كم أصبح عددهم؟

أما الأتعس حالاً، فأولئك الذين يزجّون في أماكن مظلمة، لا تراها الشمس بتاتاً .

أماكن يمارس فيها أقسى أنواع التعذيب، وإهانة النفس البشرية .

أماكن يعتدى فيها على نساء أمام نظر رجالهن .

أماكن يعذب فيها الرضيع حرقاً أمام عيني والده .

أماكن مقرفة ومجهولة، لا أحد يستطيع وصفها لنا ، حتّى أُلئك الذين دخلوها ، لأنّه حتماً هناك أموراً، يحاولون إخفائها على أنفسهم ، حتى لا تخنقهم عبرة البوح .

أآآآآه لو كنّا نستطيع البوح، ما ألذّه من شعورٍ أن تسكب كلّ الذي يعكر صفاء قلبك وترتاح .

لكن البوح في بعض الحالات لغير الله متعب، لذلك ترى معظم الناس لا يبوحون، إلّا على سجادات صلاتهم، فهي على الأقل المكان الأكثر أماناً .

المكان الذي تعرف أن لا أحد سيؤذيك فيه،ولا أحد سيجعل من بوحك ذاك، صفقة إعلامية يتاجر بها ، ليشتري تعاطف الناس الآني مع قضية .

علينا أن نعترف اليوم بأنّ كلّ شيء أصبح آنياً، نحزن في اللحظة ذاتها، نتضامن في اللحظة ذاتها .

ثم نمضي... نمضي هكذا، و لا شيء قدمناه سوى التعاطف، منذ متى والعاطفة تنصر مظلوم، أو تقوّي أمة؟ .

وهل شبابنا يعتبر حقاً، أنّ تعاطفه الآني سيغير واقعاً يكرهه، نتظاهر ونغضب في وقتٍ محدد، ثم ننسى .

نقيم حملة تضامن إلكترونية، وماذا عن التضامن على أرض الواقع ؟.

أين نحن منه ؟ لو سأل كلّ شابٍ وفتاة نفسه سؤالاً واحداً .

هل أنا حقاً فعلت الذي كان بإمكاني فعله، لنصر مبدأ لا يختلف عليه اثنان .

ألا وهو أنّ للجميع الحق، بأن يعيش بسلام وحرية، لا أحد ستعجبه إجابته على الإطلاق، إلا من رحم ربي...

فنحن للأسف دوماً نجبن أمام الإجابة على أسئلةٍ كهذه...

لأننا نعرف تمام المعرفة، أنّ إجابتنا لن ترضي ضمائرنا، فنختار أساساً أن لا نطرح سؤالاً كهذا على أنفسنا .

وكم من الأسئلة التي إن ما استطعنا الاجابة عليها، سننقذ أنفسنا أولاً، ثم سننهض بأمة .

لكن هيهات، هيهات، فمعظم أسئلتنا باتتْ سطحية، لعلّ أكثرها عمقاً يطفو ويبتعد عن قاع بحر الحقيقة، بمقدار أقسى عمق محيط في الكون .

وندور حول أنفسنا، ككوكبٍ تائه في مجرّة .

مجرّة لا شمس فيها، كي نرى الطريق فنكتفي بالدوران، حتى نثمل من دون خمر ونسقط مغشياً علينا، لنغدو مجرد ذرة غبار في فضاء، لا يعترف إلّا بالشموس والأقمار، وكبار الكواكب .

كنت أنت شمسي، لكنّك كنت شمساً حرّاقة من دون نور، كنت أرى فيكَ نوراً كاذباً أعماني .

أصبحت لا أملك شموساً، ولا أقماراً إلّا في عالمك، حطمت لأجلك كلّ المجرّات، ومزقت كلّ التواريخ .

أصبحت معك كوناً جديداً، كوناً جميلاً أوسع من الكون الذي كنت فيه، صار كل شيء أحلى .

وتخلّى الحزن و العلقم عن عالمي، حتّى اختلافاتنا لم تكن مهمة في البداية .

ولكن فيما بعد حالتْ تلك الاختلافات، بيني وبينك للأبد .

في السابق كانت اختلافاتنا هي ذاك المحور، الذي تدور حوله كل كواكب أفكاري. . .

أو ربما وبعبارةٍ أدق كان الفرق بيننا ، هو ذاك الفضاء الذي أملأه بمجرّة وجودي.

لكن فيما بعد اكتشفت أنّ الاختلاف في بعض القضايا، لا بد أن يؤدي إلى الخلاف. لا أتحدث هنا عن الخلافات السطحية، أو اختلاف الأذواق أو الطموحات إنما أتحدث عن اختلاف مبادئ، مبادئ تحدد وترسم مصير وطن وشعب بأكمله.

نقاط كثيرة اختلفنا لأجلها .

أمور لم تستطع أنت أن تراها كما هي على حقيقتها، فهناك أمام عينيك جشع وطمع عصب عينيك، فلم تعد ترى الحقيقة .

الحقيقة ليست أمراً نسبياً، وليست أمراً قابلاً للجدل أو النقاش .

أو حتّى القبول بنقاش الحقيقة. الحقيقة حقيقة يا غالي .

الوطن واحد، والقتل حرام، والظلم حرام، والغربة مرة، والقاتل يقتل، والطمع يعمي العيون، والسياسة لعبة قذرة .

والشعب دوماً هو الضحية، والحرّية حق، والحياة حق، وأرواح النّاس ليست لعبة. .

كلها حقائق لا أعرف كيف أستطعتم اللعب بها، وجعلها موضوع للنقاش. .

كنت كاذباً وممثلاً محترفاً، تعرف كيف تنسف الواقع وتبرر تصرفاتك، وأفعالك الشنيعة باسم الدفاع وباسم السلطة .

أجل عليّ أن أعترف اليوم بشئٍ حقاً، السلطة هي صاحبة الحقّ الوحيد في الدفاع عن ذاتها . ولها الحق في محاولة الاستمرار، لكن ليس بطريقة بشعة .

أتراق دماء شعب بأكمله، وتهدم مدن كاملة من أجل سلطة ؟

من هي سلطتكم تلك حتّى تريق دماء المسلمين، وقد حرص الإسلام على صون الدماء، وإن كانت دماء كفار؟ .

على كلٍّ أُريقت في بلادي دماء المسلمين والمسيحين، والأطفال والشيوخ والرضّع .

وكأنّما دماءنا رخيصة، وكأنّما أرواحنا هينة . .

(وتحسبوه هيناً وهو عند الله عظيم) .

كنت قبل كلّ هذا سعيدة معك، أو إن صحّ القول، لم أكنْ سعيدة معك إلا قبل ما حدث .

لكن القدر يأبى أن يهبنا السعادة هكذا، دائماً ما يجعلنا ندفع ثمن سعادتنا تلك ثمناً باهظاً .

وقد دفعت عمراً كاملاً ثمناً، للحظاتٍ لم أشعر بها إلا وقد مرّتْ بسرعة البرق، تاركة لي ذكريات حلوة، لكنّها موجعة .

كنت الدرس الأكبر، و(الأحلى) في حياتي .

ظننتُ قبلاً أنّ يوم وداعك، سيكون الأعنف في ذاكرتي، لكنّي كنت حينها مخطئة، فيوم موتك بعدها كان الأعنف والأكثر وجعاً .

وأصبح يوم وداعك وموتك بعدها، مجرد قصاصة ذاكرة تقف بسيطة أمام هول ما حدث بعدها .

هناك أمور كثيرة، كانت موجعة أكثر من يوم موتك، وأكثر من يوم وداعك .

حتّى أكثر من يوم موت أمي .

اضطررتُ كطبيبة أن أشاهد أنواع العذاب والوجع والألم بأمّ عيني .

اضطررتُ أن أخبّئ دموعي أمام أُناس ينهارون، حتّى لا أزيد من انهيارهم .

أتدرى . .

كلّما تذكرت زياد وقصته، يتوجع قلبي، تتفحم الأوردة والشرايين في داخلي .

وبالرغم من أنّي لمْ أرْ زياد أمامي ، إلّا جثة ميتة متفحمة، إلّا أنّه ظلّ يعيش في داخلي .

يوقد فيّ نيران حقد وغضب، ويسكب في عيني دلو دموع وخيبة .

سأحكي لك قصة زياد، علّك تعرف ما معنى الوجع الذي عشناه .

علّك تعرف ما معنى أن تقتل نفسك، لتتخلص من وجعٍ يقتل حبّك للحياة .

...

زياد

زياد شاب بسيط، لكنّه كان كمان يقولون(شاطر)، استطاع في فترةٍ ليستْ بقليلة، أن يؤمن نفسه مادياً .

كان نجاراً بسيطاً يملك محلاً يعمل فيه، اشترى شقة صغيرة وجهزها، وسيارة بسيطة ينقل بها المفروشات التي يصنعها إلى صالات العرض هنا وهناك، ويستخدمها يوم الجمعة في أخذ العائلة كاملة في نزهة بسيطة ، بين أشجار الريف الخضراء و أزهاره الحلوة، وبين كلّ تلك الأزهار، استطاع زياد أن يرى ياسمينة قلبه صدفة .

كانت ياسمين أيضاً في نزهةٍ مع أهلها،(سبحان الذي خلق هالعيون شو حلوين)

قالها في سرّه وقد تسمرتْ عينيه عليها، وهي تلاعب طفلاً صغيراً، لا يعرف ما هي صلة القرابة بينهما .

لكنّه تمنّى أن يكون بدلاً منه، حتى يستطيع تأمل عينيها الزرقاء الجميلتين، ووجهها الأبيض المشرق، وقد أحاط به حجاب أبيض بسيط .

أنّب نفسه كثيراً، لأنّه أطال النظر بجسدها النحيل، بالرغم من أنّها كانت تستره بعباءةٍ سوداء طويلة، لا تُبدي من مفاتنه شيئاً .

قد جنّ بها هكذا ومن أوّل نظرة، ومن يقول أنّ حبّ زياد لياسمين بهذه السرعة جنون .

أجيبه أنّ الحبّ والعقل لا يجتمعان، وبما أنّ زياد من قرية بسيطة، كان من السهل أن يعرف أهل محبوبته ويتقدم لخطبتها .

عرف من أمه فيما بعد أنّ اسمها ياسمين، يا لجمالها !

ياسمينة هي كما اسمها، خطب زياد ياسمين، و ممّا زاد حبّه بها أنّها كانت حافظة لكتاب الله .

وحينما قال لها لأوّل مرة، أنا أحبك كثيراً، ومستعد لأن أفعل أيّ شيء لأجلك، فأطلبي يا آنستي...

أجابته :– أيّ شيء ؟ أيّ شيء ؟ .

قال والفرح يغمر روحه :– أيّ شيء .

(بدّي منك تحفظ قرآن، لو بتحبني جد بدي تحفظ قرآن) .

كم هي نقيّة ياسمين، كم هي نقيّة، حفظا الكثير من آيات القرآن معاً .

كان يعشقها ويعشق هدوءها، كانت خجولة جداً .

في كلّ مرةٍ يمسك يدها، كان يستطيع أن يسمع دقّات قلبها، وهي تدق بسرعة كبيرة .

دق. . دق. . دق . .

قال لها في مرة :- عليكِ أن تتخطي مرحلة لمس اليد . فهناك مراحل كثيرة علينا أن نصل إليها، فأنا عطش إليكِ .

انتفضتْ يومها غاضبة، وقالت له :-

-أنت قليل الأدب .

ضحك كثيراً:

- قليل أدب، شكراً حبيبتي .

كانت ياسمين نقيّة طاهرة .

احتاج زياد وقتاً طويلاً، قبل أن يقبّلها القبلة الأولى، لْم تكنْ ياسمين فتاة عادية .

احتاجت وقتاً كبيراً ، لتعرف كيف ترسم النساء كحل العيون .

كانت جاهلة بحيلِ النساء وخبثهن، كانت بسيطة حالمة .

لهذا أحبّها زياد أكثر وتعلّق بها، ولم يعدْ يناديها سوى روحي، لأنّها حقاً أصبحتْ روحه، وحياته وكلّ دنيته، كانت امرأة جيدة وصالحة بمعنى الكلمة .

أمه كانت تعشقها وأخوته وكل أهله، كانت ياسمين تستحق الحبّ، لذا فالجميع أحبّها .

خلال شهر واحد من الزواج، استطاعت أن تتفوق عليه في كسب قلوب أهله، وباتتْ ياسمين أغلى من زياد حتى على أهله .

يذكر كم كانت شقية وأتعبته، حتى استطاع أن يلمسها وهي تختلج كلها، وقلبها ينبض ويدق إلى درجة أعتقد فيها أن قلب ياسمينته سيتوقف خجلاً .

كلما قال لها كلمة حلوة، كانت تتلعثم وتحمر وجنتيها، ويلازمها صمت بإبتسامة، سحر أنثوي توصله إلى نشوة حب ما كان ليصلها لو تكلمت .

فالصمت أحياناً يقول الكثير .

وصمت ياسمينته كان روايات وقصص، وأبيات أشعار ومعلقات لا تنسى .

في يوم زواجه الستين بالضبط. .جاءت إليه على استحياء .

- زياد. .أنا. .أنا. .

- ما بك يا روحي ؟ .

-أنا حامل .

كم من مشاعر الفرح والسعادة غمرته في لحظته تلك، اللهم ارزقني ببنت، اللهم بنتاً تشبه ياسمين .

ضحكت كثيراً .

- إذاً لا تريد ولداً .

- أريد أحداً يشبهكِ، وأنت ست النساء لا أريد لابني أن يكون هكذا .

كان يوم حلواً جداً، ضمّها إلى صدره ونام .

ليصحو بعدها على أكبر فاجعة في عمره، لم يشعر وهو غارق في نومه، إلّا بصوت قرعٍ على الباب يوقف القلوب .

قام فزعاً ليفتح الباب، بينما أسرعتْ ياسمين، لتلبس عباءتها وتضع حجابها .

عسى الطارق خيراً .

لكن الطارق كان هو الشر بعينه، كانوا مجموعة من الجنود يبحثون عن (إرهابي فار) .

لكن يبدو أنّ جمال ياسمين، قد أنساهم مهمتهم، نظرات خبيثة فيما بينهم، وهمس خبيث .

انتهى المشهد ذاك، بأنْ قيدوا زياد وكمّموا فمه، بينما تركوا عينيه مفتوحتين .

– هناك فيلم ما، عليك أن تشاهده .

مزقوا عباءتها، وهي تصرخ راجية منهم أن يتركوها، لكنّهم لم يأبهوا .

شخص تافه حقير يخلع حجابها، ويلمس شعرها الناعم، ويتحسسه بيديه المقرفتين .

يقترب منها (ما هذه الرائحة الجميلة التي تفتح النفس)، وهي تبكي وتصرخ، وتحاول أن تبعده عنها .

حاولتْ أن تضربه بأيّ شيءٍ تستطيع الوصول إليه، لكن ما من شيء كان أقرب إليها من الوسادة، فضربته بها .

ضحك مقهقهاً، والأوغاد من حوله يضحكون، رمى الوسادة على الأرض، ورماها هي أيضاً أرضاً .

كان يجرّدها من ثيابها، وهي تبكي وترتعد، هي التي لم تسمح لزوجها بالحلال، أن يلمسها إلا بعد عشرِ أيام من يوم زفافهما، لشدة حيائها و اعتزازها بعذريتها

تكشف اليوم عورتها، يهتك اليوم شرفها، تغدو لقمة سائغة لأوغادٍ كلاب حقراء .

يتناوبون الواحد تلو الآخر في الإعتداء عليها حتى تنزف، وهم يتمتعون بهذا، وزوجها قد أغمي عليه من بعد ثاني عملية اغتصاب لزوجته أمام عينيه .

من الجيد أنه فقد وعيه .

لأنّه لو بقي في وعيه، كان عليه رؤية زوجته تتعرض لإحدى عشر عملية اغتصاب متتالية، حتّى وهي تنزف، اغتصبوها واعتدوا عليها حتى ماتت .

وإلى الآن لا أدري، أهي ماتتْ قهراً، أم وجعاً، أم من شدة النزيف، فكّوا قيد زياد وغادروا البيت .

تاركين خلفهم بركة دماء كبيرة في غرفة النوم، وعباءة سوداء مقطّعة، وامرأة عارية في رحمها مشروع وليد،قد فارقت الحياة.

حينما صحى زياد، ركض إلى ياسمين يحاول أن يوقظها .

لكن ياسمين عمره ماتت، راحت، ذهبت، كيف تموت ياسمين عارية .

وهي التي كانت تخجل أن تكون عارية، حتّى أمامه، أخذ يصرخ ويبكي .

يا الله، لِمَ يحدث كلّ هذا ؟

دخلت أمه على صوت صراخه، أمه كانت تعيش في الطابق الذي فوق بيته .

كانت ممنوعة من أن تنزل قبلاً، فعناصر مدجّجة بالسلاح تقف، لتمنع ذلك الإرهابىّ المزعوم من الهروب .

رأتْ ابنها منهاراً تماماً، ويايسمين جثة عارية تنزف دماً وقهراً،أسرعت المسكينة إلى تغطيتها بأوّلِ شيءٍ رأته، وحاولتْ أن تهدأ ابنها .

لكنّه كان يقول لها ما حدث كمجنون، كان يبكي ويضحك، يصرخ ويضرب نفسه بكلتا يديه .

وهي تقف عاجزة أمامه، تبكي وتشهق مثله، وهي التي لمْ ترْ هول الموقف .

ركضتْ خارجاً كي تطلب المساعدة من أحد الجيران أو المارة، لكن زياد في تلك اللحظة جنّ فعلاً .

ذهب إلى المطبخ، وفتح أنبوبة الغاز، حتّى امتلأ الجو بالغاز .

وأشعل عود ثقاب فجّر فيه كلّ البيت، هو وياسمين والبيت الذي قضى نصف عمره وهو يبنيه .

وأمّه واقفة في الشارع، مذهولة وهي ترى ما حدث، وتصرخ وتملأ الشارع بصراخها، ليجتمع الناس محاولين عبثاً إخماد حريق تقشعر لرؤيته الأبدان .

وجاء إلىّ زياد جثة متفحمة، وأمه معه تبكي .

وتقول لي :-

- بالله عليكِ يا دكتور ة، زياد . .زياد .

لكنّه كان ميتاً .

ما الذي أستطيع أن أفعله لميت ؟.

لم أقلْ لها أنّه ميت، حاولتُ أن أتظاهر بأنّي أداويه .

- لكن ما الذي حدث يا خالة. . لم يكن هناك قصف، كيف احترق هكذا ؟

فأخذت الخالة أم زياد تقصّ عليّ، وتبكي وترتجف وأنا أمثّل أمامها محاولات إنقاذ ابنها (الميت) .

يا إلهي كم بكيت، كم شهقت، في الحقيقة كان من الجيد أنّه قد مات .

كم تعذّب زياد، وكم تعذّبت ياسمين، وأيّ ذنبٍ فعلاه، ليحدث بهما كلّ الذي حدث من ألم ؟

قصة تكاد أن تكون فيلماً تراجيدياً من أفلام التراجيديا الهندية .

لكنّه للأسف واقع سوري .

تركتُ الجثة المتفحمة وأم زياد .

وذهبتُ إلى ممرضٍ يعمل معي، وطلبت منه أن يخبرها بأنّ زياد مات .

وأخذت أبكي ، لم أملك الجرأة حتى على مواساتها .

ماذا أقول ؟.

وهل تنفع الكلمات في مواقف كهذه ؟

هل تنفع الدموع والصرخات، لا شيء ينفع ؟

على كلٍّ أم زياد اليوم أصبحت امرأة مجنونة، تجوب الشوارع تائهة، تحكي كلمات ليست ذات معنى .

أصبحت تنادي كلّ شباب القرية باسم زياد، قد جنّت المسكينة .

وأهل ياسمين أصيبوا بالذهول والفاجعة، أمها أصيبتْ بفالجٍ نصفي، وماتت بعد فترةٍ وجيزة .

أما والدها فقد أصبح شخصاً شبه أخرس، لا يتكلم إلّا نادراً .

وأنتَ بكلِّ غباءٍ تصف أولئك الأوغاد، بأنّهم يدافعون عن الوطن ؟؟؟ .

سحقاً لكَ ولهم .

بكلِّ بساطةٍ كانت تلك قصة زياد .

قصة موجعة مؤلمة، قصة لكثرة تعقيدها ، لا يستطيع أحد أن يستوعبها .

وهل هناك عقل بشرىّ، يستطيع أن يستوعب كلّ هذا ؟ .

لكنّه حدث يا غالي. . . .

والله حدث . . . .

...

وداعك

كان يوماً من أيّام شهر آب بامتياز . .

فقد اختصر كلّ حرارة الشمس، و حرارة الحرب في أشعته ولهبه، الذي أشعل الأرض من تحتنا حرارة، بالكاد نحتملها .

لكن لراحة يدك يومها تأثيراً، فاق تأثير شمس اب .

أشعلتَ قلبي بلمسةٍ صغيرة، وكأنّما ليدك مفعول مصباح علاء الدين، فقد طارتْ بي إلى آخر الدنيا .

هناك حيث لا مكان، إلّا لعاشقٍ ولهان ينتظر غده .

أمسكت يدي ضغطت عليها بحنان، أشعرتني و كأنّي ذلك الطفل الوليد، الذي لا زال في مهدِ الحياة .

كنت حينها أبي وأمي وكلّ عائلتي، قبّلت يدىّ وضممتها إلى صدرك .

طلبت منّي السماح، وأخبرتني أنّك لن تبيع مبادئك، ثمّ مضيت وتركت خلفكَ قطعة جليد، يُذيبها لهيب فراقك .

قطعة جليد يملأها الألم، وتُذيبها حرارة صيف، أعلنت فيه الحرب سيداً .

كيف تتركني أنتَ الذي أخبرتني يوماً أنّي روحك ؟!

كيف تخلّيتَ عن روحك ؟!

كيف أصبحت هيكل انسان، بلا روح وبلا إنسانية ؟!

كيف أصبحت ميتاً هكذا ؟؟

بالله عليك قل لي منذ متى اغتالوك، وأيّ تاريخ عليّ أن أدون فيه ذكرى موتك ؟

أهو يوم تخليكَ عن إنسانيتك، أم يوم دفنك ؟؟

أيّهما كان يوم موتك يا غالي ؟ .

لم تكن تعلم حينها أنّ مبادئك تلك، ليستْ سوى أحجار شطرنج، يلعب بها سادتك كما تسميهم أنت، دون أنْ يكترثوا لنهايتك .

حتّى أنتَ لم تكن تكترث، حتّى ولو أودتْ لعبتهم القذرة تلك بك إلى صندوق نفاية يضمّ المعقوبين وطنياً .

لن يطلب أحد منهم الرحمة والمغفرة لك، عندما تموت، لأنّ دورك حينها سيكون قد انتهى .

أما أنا لا زلت هنا، أسأل نفسي هل يجوز أن أطلب لك الرحمة ؟؟؟ .

لكنّي في كلّ صلاةٍ أطلب لك الرحمة .

بالرغم من كلّ الذي فعلت، بالرغم من كلّ الذي جنيت، أطلب لك الرحمة .

أقول في نفسي الصالحون، لا يحتاجون لمن يدعو لهم، هم يتكفلون بذلك، أمّا الأشخاص السيئين، هم من يحتاجون للدعاءِ بالهدايةِ والغفران .

لكن هل من الحلال أن ندعو لسفاحٍ بالغفران ؟ .

هل تعد دعواتنا تلك تصريحاً غير رسميّ، بأنّنا نوافق على كلّ ما يفعل ؟ .

هل الحقد على الجرائم يجب أن يلهمنا ، أن ندعو الله أن يأخذ الظالم بدلاً من أن يهديه ؟ .

لا أدري، لكنّي أشعر بالوجع واليأس والحقد ، وأحقد على أوقاتٍ أضطر فيها أن اجتمع بأناسٍ يعرفونك .

فيسردون جريدتك السوداء أمامي، يحكون لي كيف قتلت وكيف أحرقت، كيف شتمت وكيف تغيرت، فأشعر بحديثهم ذاكَ ملحاً ، يكوي جراحي التي كلما التئمت عادت ذكراك لتأجج الوجع فيها .

لا أحبّ أن أتذكرك، عندما تركتني أنثى هامدة تتنفس الوجع، لتواصل حياتها بعيداً عن أحلامٍ نسجناها يوماً معاً .

تركتني لتلبّي أوهاماً قضتْ على كلّ أحلامنا و آمالنا، أعترف أنّها لم تكن، لتغير قدرنا، فالقدر مكتوب منذ الأزل .

لكن لو أبتعدت عنها، لكان من الممكن أن يكون قدري أقل ألماً .

فقدري اليوم مؤلم جداً يا سيدي، أريد أن أعرفك غالياً كما كنت، أريد أن أمحو تلك الفترة من الألمِ من دفتر ذكرياتي، لكنّي لا أستطيع .

ممحاة الذكريات آلة مخادعة، في لحظةٍ ما تشعر وكأنّما قد محتْ من وجودنا، أشخاصاً ومواقفاً، كنا نتخيل أننا لن ننساها يوماً .

وفجأة تعود كل ذكرى إلى مكانها، وكأنّما كانت تجهز نفسها بقوةٍ أكبر للحضور.

قوة تجعلها تسيطر على ذاك الجزء من الدماغ المسؤول عن الذاكرة .

وتنصب نفسها مديرياً افتراضياً لكلّ أحلام المستقبل .

خدعتني ممحاة الذكريات تلك عندما أوحتْ إليّ يوماً، أنّها قد مسحتك من كياني.

خدعتني وأعادتك إلى عرش قلبي وفكري مجدداً للمرة الألف .

بالرغم من أنّك كنت الثغرة الأكثر عفونة في حياتي، الأكثر سواداً، لذلك ربما لم تستطع أن تمحوك منّي لشدة سوادك .

أكره الخداع كثيراً، لذلك أكره ممحاة الماضي وأحبّك .

أحبّك لأنّك لم تخدعني يوماً، أحبّك لأنّك الفجر الذي بزغ في عتمة ضياعي .

لم أعلم أنّك كنت فجراً كاذباً، وبكَ فقط أدركت أن النّور الذي نراه في الظلام ليس بالضرورة أن يكون فجراً .

ربما يكون حريق هائل يشتعل، ليمر بنا وينهينا ويتركنا خلفه رماد ذكريات ليس إلّا، لكنّك خدعت نفسك وكذبت على الوطن كذبة كبيرة، كذبة أشعلت لهيب حرب حصدت فيها أرواح بريئة .

تلك الكذبة التي جعلتني أتخذ قراري بأنّ أتخلى عنك .

حينما تخليت عنك كنت متأكدة، بأنّي تخليت عن روحي، وعن تلك الأيّام الجميلة التي كان من المفترض أن نعيشها معاً في ذاك البيت الريفي الجميل .

عندما أخذتني من أمام باب جامعتي، وأغمضتُ عيني بوشاحك الشتويّ الذي كان ممتلئ برائحتك مشعاً بنور رجولتك .

حينما أزحت الوشاح عن وجهي كنّا أمام منزلٍ رائع ، منزل جميل .

منزل تماماً كذاك الذي، أخبرتك يوماً أنّي أحببته، وأنّي أتمنى أن يكون لي منزل مثله، مضى عامان يا غالي، عامان لم تخبرني خلالهما، أنّك كنت تبني لي منزل أحلامي .

تعرف أنت جيداً أن كلّ القصور والمنازل لا تعنيني، تعرف أنّي لا أهتم لأبجدية الماديات، كل ما يهمني قراءته هو أبجدية عشقنا .

كلّ أبجدية عدا عشقك لا تهمني، أخبرتك قبلاً أنّي بنيت بكَ كوناً جميلاً، كوناً أحببته جداً، لكنّه انهار فوقي وحطمني .

كنت دوماً تحبّ أن تتوج حبّنا بالكمال، تحبّ أن تحقق لي كلّ ما أتمنى، كلّ الذي أقول لكَ بأنّني أريده .

كنت قد نسيت تماماً، أنّي أخبرتك برغبتي بمنزل كذاك المنزل، لكن عندما فتحتُ عيناي تذكرتُ كلّ شيء .

كان كلّ شيء فيه يشبه المنزل الذي أحببته قبلاً، سوره الأبيض، الياسمين الذي عرش على جدرانه .

كيف استطاع الياسمين أن يتسلق جدران منزل حديث بهذه السرعة ؟؟ .

لربما كان يعلم الياسمين بقصة عشقنا، فأحبّ أن يكون الطرف الثالث في عشقنا .

ما أجمل الياسمين حين يشاركنا قصص حبنا !

لمْ تطلبْ منّي أن أدخل إلى داخله حتّى أراه، فأنتَ تعلم جيداً مبادئي التي لا تعجبك في كثيرٍ من الأوقات .

تعرف أنّي أحبّك أكثر من أيّ شيءٍ، وتعلم أيضاً أنّني أرفض بمقدار ذاك الحبّ، أن أدخل معك مكاناً يجمعنا وحدنا .

كثيراً ما كنت تغضب و تتهمني بعدم الثقة، أنا أثق بك يا غالي، وأثق بنفسي،

لكنّني لا أثق بشذى عبيرك، لا أثق بعينينا، لا أثق بكلّ تلك الرغبات التي تعتريني

كلّما نظرتَ إليّ بعيونك العسلية، وسمارك الفاتن .

كثيراً ما كنت أتمنى أن أرمي برأسي إلى صدرك، وأبكي كلّ تلك الأوجاع، لكنّي لم أستطعْ .

منذ لقائنا الأول، لم أعرفْ أنّك أمسكت يدي، مع أنّك كنت تتمنى ذلك كثيراً،

لكنّك كنت تحترم خطوطي الحمراء، التي لا تعجبك في كثيرٍ من الأوقات،

لكنّك أمسكت يدي يوم ودعتني، وقبّلتها قبلة لا تزال مطبوعة عليها رغم كلّ تلك السنين .

كنت عاشقاً بإمتياز، عاشقاً ملأتني حباً وفرحاً .

وها أنتَ اليوم تملأني ألماً ،ألم تعدني يوماً أنّك لن تُبكي عيناي مهما حدث؟

حبّذا لو تستطيع اليوم رؤية عيناي، وقد أضناهما البكاء، لكنّي لست آسفة، ولا نادمة، بالرغم من كمية الوجع التي تسكنني لم أندمْ يوماً .

فأنا أعرف أنّ للألم الذي أشعر به اليوم، مرتبة رخيصة جداً، أمام مراتب الألم في وطني .

ألم فراقك هو أسهل من أن تفارق الإبتسامة ثغر امرأة أربعينية، بعدما بترت أحد ساقيها، و بترت يداها معاً جراء قذيفة عشوائية اختارت منزلها .

عندما رأيتها كانت تمزق دفتر العائلة بأسنانها،

لا أيد لها حتّى تمزقَ بها، و لا أفراد عائلة على قيد الحياة، لتحتفظ بذاك الدفتر.

كان يكفيها أن تحتفظ بهم في خضم القلب، استشهد أولادها الخمسة .

واستشهد زوجها، أتتوقع أن ألم فراقنا صعب أمام أوجاعها،كم هوهينٌ يا غالي؟

رخيص هو ألمي أمام الوطن، هل تظن أن ما أشعر به يعتبر ألماً، أمام ما شعر به زياد أو ياسمين في يوم .

هل تظن أن وجعي أكبر من وجعِ رجلٍ، يقف صامتاً مذهولاً، وهو يسمعني وأنا

أقول له بصوتٍ يحاول أن يدّعي القوة، بأنّ طفلته الوحيدة ذاتَ الخمسِ أعوامٍ قد بُترت قدميها نتيجة القصف .

قل لي ما هو وجعي ؟ .

إن كان من حقي أن أُسمّي ما أشعر به وجعاً، علي ربما أن اسميه تأنيب ضمير وليس وجعاً .

كنت أرى الوجع والقهر في عيون الناس، وبالرغم من أنّه(ما حدا بيحس بوجع حدا) على حد قول أمي، إلّا أنّني كنت أشعر بوجعهم .

والله كنت أشعر بمقدارِ الألم الذي يحسون به،لكم ما من شىء كنت أستطيع فعله،

سوى مداوتهم من الجروح الظاهرة لي .

أما تلك الجروح في القلب، فلا سبيل لدي لمداواتها، الله وحده قادر أن يعلمها وهو سبحانه وحده القادر على أن يبرئهم منها،

كنت أستطيع أن أقرأ سطور القهر في عيونهم، أما أنت فقد كنت تتألم لألم الناس لكنّك كنت تعتبر أنّ آلاف القتلى تموت من أجل الوطن، مئات العائلات تتشرد، لأجل الوطن !!!!

بربّك من هو الوطن ؟؟ .

أليس نحن أو أنتم، لقد خرجتْ شرارة الحرب الخبيثة فدمرتنا و دمرتكم. ودمرت بطريقها الوطن، لا أعرف إن كان من الصحيح أن اسمي ما حصل حرباً .

ماحصل كان شيئًا يفوق كل المسميات. . .شئ تعجز اللغات عن وصفه. .شئ يفوق الخيال. .

اختلف الناس فيما يسمونه، حرب أم ثورة أم أزمة، لكنّه في النهاية حدث عظيم غير حياة أمة، أفقدها الكثير وأعطاها الكثير، أعطانا الأمل و الألم .

أعطانا الوطن و الغربة، وجعلنا نؤمن حقاً كم كنّا سعداء يوماً ما، فالظلم قبلاً كان مستوراً مخفياً .

أما بعد ما حدث أصبح الظلم أشبه بنشرة أخبار متاحة للعلن، لا أنكر أنّنا قبل ما حدث كنا نعيش حياة حلوة لا بأس بها .

لكنّنا أحببنا أن نكسر قيود الظلم، أردنا أن نعرف بأيّ ذنب نعتقل .

ولماذا علينا دوماً أن نصمت، حينما نظلم إذ ما كان الظالم ذاك صاحب منصب، أردنا أن نحقق العدل والمساواة .

ببساطةٍ أردنا أن يكون كلّ شىء أجمل، فأصبح فجأة وبطريقةٍ لا نعرفها، كلّ شىء من حولنا قتل ودمار .

وأصبحت مطالبنا تلك مجرد تهمة كبيرة، ودفعنا نحن ثمن تجريمنا في تهمة، لم تكن تهمة إلا ضمن قوانين السلطات .

تلك القوانين التي يصيغونها وفقاً لأهوائهم والقوانين الحقيقة، فلنضرب بها عرض الحائط .

القانون هنا هو الدولة والسلطة، وأيّ شيء عداهما يعد انتهاكاً لحرمة الوطن .

وطن شبع يأساً واستغلالاً، وتزييفاً للحقائق .

...

استعمار

لا أحبّ أن أفكر فيك كثيراً، يكفيني أنّك تلاحقني كما ظلّي،تستعمر أفكاري.

مستعمر أنت يا غالي، أما كفاك استعمار الوطن، لتستعمر قلبي .

كثيراً ما فكرت أن أنساك، لكنّني لم أستطعْ، النسيان نعمة صعبة المنال .

لا أستطيع أن أنساك، سبع سنين هي دهر كامل عشناه .

أتكفيني سبعين سنة بعدها، حتّى أستطيع أن أمحو تلك الحقبة من أجندة تاريخي.

ولا أرى نفسي اليوم إلا امرأة خمسينية وحيدة، لا يفصلها عن الأمل سواكَ أنت.

نعم لقد كبرت، أصبح وجهي مليء بتجاعيد قاسية، قد خطّتْ خطوط ألم، يستطيع أيّ عرّاف أن يقرأه، فالعرّاف اليوم بات يقرأ (الفال) من الوجوه، وليس من كفوف الأيدي، وذلك بعد أن فقد معظم الناس أيديهم بسبب الحرب .

عندما قررت أن أهرب منكَ إلى نفسي، لم أجد أمامي إلا ذاكَ الدفتر الرماديّ و القلم الأسود .

كان لونهما عنوان رواية أكتبها عن اثنين، جمعهما الحبّ و فرقهما القدر، أمسكت القلم و بدأت الكتابة .

وحدها الحروف المكتوبة، لا تخوننا في كثيرٍ من الأحيان، فإن كان لنا ذاكرة موجعة، فهي طالما تستجيب لنا معلنة الولاء أمام أوجاعنا .

أمّا الحروف التي تقال، فهي غالباً ما تموت في لحظتها .

قليلٌ من الكلمات المقالة فقط، هي التي تعيش وتأبى الموت، تبقى ذلك الهيروئين الذي يقتلنا، فلا نحن نستطيع تركه .

و لا نستطيع الاستمرار في تعاطيه، كلماتك لا زالت إلى اليوم تضنيني .

فدعني أكتب ولو قليلاً، وأبتعد بروحك عني، دعني أكتب بسلام فهي روايتي الأولى .

فهل تسمح لي يا سيدي أن أبدأ الكلام ؟؟؟ .

...

حبيبة

عندما بدأت الكتابة لم تهتدْ إلى ذهني أيّ حروف، لأبدأ بها قصتنا

من أين أبدأ ؟؟

قررت أخيراً أن أبدأ من ذاتي، من حروف اسمي التي تحتاج قلباً يحتويها .

ابتدأ بحبيبة قبل أن يطرق الحب باب قلبها .

كنت مدللة والديّ، طفلتهما الوحيدة وبنت عمدة القرية، لكن للدلال عندنا مفهوم، يتناقض مع مفهوم الدلال عندكم يا غالي .

لم يعلمني والدي التسلط يوماً، أو حبّ الذات، كنت مدللة (أبو العز) .

صحيح أنه تمنّاني في قرارة نفسه ولداً، يحمل اسمه ويرث منه منصب (المختار)، فكما تعرف أصبحنا شعب يحكم (بالوراثة) .

لكنّه ما كان يستطيع إخفاء حبه الأبوي لي، لا أزال أذكر نزهتي معه في الحقول بين أشجار الحور .

وأنا أركض خلف أزهارها، كحلمٍ أبيض انفصل عن قائمة الأحلام .

وصار وهماً يلاحقه الأطفال، ليمسكوه بأيديهم و يحولوه إلى لا شيء .

لا شيء سوى زهرة حور أثرت الإختفاء على الوجود .

أحبّ أبي بالقدر الذي أحبك، لكنّه هو أيضاً أوجعني .

تركني والدي طفلة صغيرة ورحل إلى الموت، حينما توفي والدي كنت لا أزال في الخامسة عشر من عمري، كان صدري رحباً، يمتلئ ببوابات الحياة، فلم يستطع الموت حينها أن يجتاز تلك البوابات .

أجل حزنت وبكيت، لكن شيئاً ما في داخلي لم يستوعب فكرة موت والدي، لم يستوعب أنّ حبيبة ستعيش من دون سندٍ في هذه الحياة .

لربما لأنّ أبو العز كان رجلاً أكبر من أن يرحل من داخلي بهذه السهولة .

رجل علّمني كلّ آيات القرآن التي أحفظ، علمني احاديث كثيرة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

رجل طالما حكى لي حكايات التاريخ والبطولة، لطالما سهرنا معاً نتكلم عن مواضيعٍ كثيرة، ولطالما اختلفنا وجلسنا نتناقش كصديقين، وليس كأبّ وابنته .

لا زلت أذكر آخر ليلة صيفية، سهرتها مع والدي على سطح منزلنا .

كنا نتناقش في موضوع الخذلان، قال لي والدي :-

- لا شيء يا ابنتي يدمر الأمم ويهدم الدول، أكثر من الخذلان، كنت أسمعه بكلّ تركيزي، ولربما الله سبحانه قد جعل ذاك الحديث آخر حديث بيننا ، حتى يظل عالقاً في داخلي ولا يُمحى .

حكى لي والدي قصة التتار (المغول)، كنت أُصدم وأفتح فمي .

كانت عيناي تجحظ وهو يحكي، ويتكلم لي عن طائفةٍ همجية دموية حديثة النشأة، وهي تدمر و تقتل وتحرق تاريخ أمة عريقة، يمتد تاريخها آلاف السنين .

كيف لشعبٍ وضيعٍ كشعب التتار، أن يحرقوا بغداد ويدمروها ؟

كيف استطاعوا أن يجعلوا منها مقبرة جماعية، لينتشر فيها وباء الطاعون ؟ .

كيف يغزون حلب ؟ كيف وكيف .. ؟

أمور كثيرة لا تسعها سطوري هنا، لكن الشيء الوحيد الذي عرفته في نهاية حديثي مع والدي رحمه الله وغفر له، أن الخذلان هو سبب ضياع هذه الأمة .

حين يقف الطرف الآخر متفرجاً على ما يحدث أمامه، وهو يشكر الله أنّه لم يصبْ بأذى .

لا يا عزيزي، فدورك آت، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

وإن كنت تعتبرعزيزي القارىء، أنّك ستكون استثناءً من هول الأحداث، فأحبّ أن أقول لك، أن جلق هي التي كانت تستحق هذه الاستثناء، وقد باركها الرسول وها

هي اليوم تنزف . . كلّ منّا سيأتي دوره، لأنّنا خانعون صامتون .

ولو أنه يؤلمني كثيراً، أن أرى ما حدث في وطني يحدث في غيره. . فما حدث كان بشعاً جداً، اللهم لا تذق العذاب الذي رأيناه لأحد من خلقك.

حزنت حينها لفراق أبي وبكيت، لكن موته لم يكن ذاك الزلازال الذي كان من المفترض أن يهزّ عرش اتزاني . . لكن الموت عاد ليزورني بعد ثلاث سنوات، عندما أدركت ما معنى أن أكون أنثى يتيمة، فقدت أباها في مجتمع لا يرحم .

لماذا هو سن الثامنة عشر الذي اختاره الموت ليطبع أثره في قلبي ؟؟

ألأنه السن القانوني في بلادنا ؟؟ أيعقل أن الموت حتى يخاف الحكومات ؟ .

أتسيطر علينا حكوماتنا إلى هذه الدرجة ؟ .

و ماذا لوكان الواحد و العشرين هو السن القانوني في بلادنا ؟

أكان للموت أن يتأخر ثلاث سنينٍ أخرى منصاع بذاك للقانون ؟؟

نحن أمة تتبع القانون وفقاً لأهواء من شرّعه، فالقاضي والجلاد شخصٌ واحد، وغالباً ما يكون المجتمع ككلٍ هو الضحية .

■ ■ ■

حرية

عندما بدأت بكتابة قصتنا، سألتني صديقتي هنادي :-

- لماذا تخاطبين غالي في روايتك؟ ! أنتِ تكتبين رواية، لا تكتبين رسالة عتب له.

كنت أريد أن أخبرك، (لعلّك بعد موتك تسمعني)، أنني لم أكن على خطأ .

أردتُ أن أبرر لك موقفي، وأن أخبرك كم أحببت الوطن .

لا زلت أحبّ الوطن، وأقدسه أكثر من قبل .

الأشياء المقدسة في حياتنا هي تلك الأشياء التي لا نستطيع الاستغناء عنها . . . .

قد تخليت عنك، لكنّي لا زلت أتنفس، لكن كان من المحال أن أتخلى عن ضميري.

مُحال أن أنسى أشلاء أطفال مبعثرة، طفل يرجوني ويبكي :-

- دكتورة أرجوكِ ركبي لي ذراعي .

بالله عليك كيف أخبره أنّ كلّ أعصابه وشرايينه وأوردته مقطوعة ؟؟

كيف أخبره أنّ ذراعه من المحال أن تعود إليه ؟

هل من السهل أن أخبره، أنّ بقاءه على قيد الحياة معجزة ؟

لا أستطيع أن أنسى كلّ ذلك، لا أستطيع .

عينا ذاك الطفل كانتا تقتلاني، كان يرجوني لكنّي كنت أشعر به يجلدني.

لقد كنت أنت جلاده ياغالي .

كنت تلك الثغرة التي تفصلني عن الوطن، لا أستطيع الانفصال عن الوطن، فقررت الانفصال عنك .

كنت دوماً ولا زلت على يقينٍ، بأنّ القرارات الأصعب في حياتنا، هي تلك القرارات التي تكشف لنا وللناس عن طيبة معدننا .

حينما يكون قرارك صائباً، تشعر بلذة الانتصار على ذاتك، تشعر بصوت تحطيمك للأنا يخترق وجدانك .

أما صوت تحطيم قلبك وأحلامك، لن يكون مسموعاً أمام رفعة قرارك، سيختفي مع الأيام .

أحياناً تمر بامتحانات في الحياة، تختبرك كانسان، امتحانات تحدد إن كنت لا زلت على قيد إنسانيتك، أم لا .

سمعت ذات صباحٍ أغنية لفيروز، كانت تقول (صدقني لو بقدر أتحمل عذاب الاشيا كلا ما كنت فليت، ولا كنت حرقتا حياتي وحرقتك . . إذا رجعت بجن، وإن تركتك بشقا، لا قدرانة فل و لا قدرانة أبقى) .

كانت اغنيتها هي عنوان قصيدتنا . . .مهما حاولت معك ساشقى. .

لكن هناك شقاء يختلف عن شقاء . . أن نشقى لوحدنا أفضل بالف مرة من أن نشقي معنا ضمائرنا .

هل تعتقد أنّ ضميراً، يعيش في روحي سينسيني ليلى ؟

لا يا غالي، هي ليست ليلى التي حكت لك أمك وأنت صغير قصتها .

وليست ليلى التي حكوا لك في المدرسة أبيات شعر نظمت لأجلها .

ليلى هذه تستحق أن يخلّد التاريخ اسمها أكثر، دعني أخبرك مَنْ ليلى ؟

وحاول ولو لمرة، أن تكون حكماً عادلاً، وتعترف أن ما فعلتموه كان جريمة عظمى، لكنّي للأسف أعرف أنك لم تكن عادلاً، ولن تستطع في يوم أن تكون .

...

ليلى

معلمتي الفاضلة ليلى. . .

منذ بدأت دراستي في المرحلة الإبتدائية، وأنا أعرف السيدة الفاضلة ليلى.

مديرة مدرسة المرحلة الإبتدائية في بلدتنا، في الحقيقة كانت صارمة جداً.

كنت أخاف منها في بعض الأحيان،كنت أقف قبل خروجي من المنزل أمام المرآة، لأتفقد لباسي وشعري وحذائي، إن كان مخالفاً لقوانين المدرسة ولبسها الموحد، ثمّ أتاكد أنّ أظافري مقلّمة، وأنّ جميع كتبي ودفاتري موجودة في حقيبتي .

وأجري مسرعة حتى لا أصل متأخرة،وأضطر إلى الوقوف على قدمٍ واحدة .

كانت معلمتي ليلى مثال للسيدة المنتظمة الصارمة في نظامها، لكنّها تتحول إلى امرأة ثانية تماماً، عندما تبكي أحد البنات أو تمرض .

نراها وقد تحولت أماً حنونة تداري وجعنا وتحتوينا،كانت ليلى من أصحاب النفوذ المالي الواسع، فقد كانت وحيدة والديها ولم تتزوج .

كانت تعيش وحيدة، وتملك من المال ما يكفي لأن تعيش حياة ملوك، لكن عملها كان بالنسبة لها حياة أخرى، ومهمتها لم تكن محصورة ضمن نطاق المديرة فقط.

كانت تستطيع أن تعرف العائلات المحتاجة، فتساعدها .

كانت في كلّ شهر رمضان، توزع على جميع طالبات المدرسة دون استثناء سلّات غذائية تكفي الشهر طوله .

وفي أيام الأعياد تختار العائلات المحتاجة، لتوزع إليها مالاً يكفي لشراء ثياب العيد جديدة لكل أفراد الأسرة .

كانت سيدة راقية بحق، كبرت واصبحت في الجامعة ولم أستطعْ أن أتخلص من تلك الرهبة التي تعتريني كلما رأيتها، كانت تضحك وتقول لي عندما أتوتر في حضورها:

- حبيبة أصبحت دكتورة، لا تخافي مني، لن أوقفك على قدمٍ واحدة .

حتى ابتسامتي كانت خجولة أمامها، بقيت ليلى مديرة المدرسة لفترة طويلة جداً، ولولاها لما كان هناك مدرسة لأطفال القرية بعد قصفها .

...

كنت أعرف جيداً أنّ هناك أناس، لا تبالي بأرواح غيرها من البشر، تقتل وتدمر وتغتصب دون أدنى شفقة، لكن كان بمخيلتي البريئة،أنه هناك استثناءات لذلك، على الظلم والقهر والحقد، أن يستثني أطفالاً لا علاقة لهم بشيء، لكن للأسف كان الأطفال هم الفئة العمرية الأكثر استهدافاً .

ربما لأنّهم شبح النصر القادم بالنسبة للظلم .

كالعادة نشرات أخبار متنوعة، إحداها تدين الهجوم والقصف على مدرسة للأطفال، وأخرى تؤكد بأنّ ذاك مجرد فبركة وإدّعاء، وأنّ ما حدث كان قصفاً لمسلحين، لم يعد مهماً بالنسبة لنا نحن شعب سوريا، ما يُقال عنّا في نشرات الأخبار وأستديوهات التحليل السياسي، والله لم يعد مهمّاً .

ماالفائدة إن كان كل ما يحدث بنا، قد وصل إلى كلّ العالم،ولم يحرّك أحداً ساكناً، وكأنّما الذي يحدث يحدث في مسلسلٍ، أو فيلم نكتفي في نهايته أن نبكي لما شاهدناه فيه، ونعود إلى روتين حياتنا اليومية بشكلٍ طبيعيّ .

أين هي نصرة المظلوم ؟.

أين هي حرية الإنسان التي نتشدّق بها ؟

وكيف ننسف حق الحياة هكذا، ونكتفي بمشاهدة الحياة تسلب من الناس دون حراك .

كانت ردود فعل العالم باردة قاتلة موجعة، لذلك لم نعد نهتم .

نشرة أخباري كنت أنا التي أعدّها، أنا التي أشاهد تفاصيلها وصورها وفيديوهاتها حيّة ومباشرة أمام عيني .

كنت في عيادتي في البيت، والصداع يقيم في رأسي هذيان لا أطيقه، أمسكت كوباً من الماء لأشربه، وبمجرد وصول الماء إلى معدتي سمعت زمجرة طائرة حربية في السماء، بصوتٍ يخرق القلوب والحواس .

شعرت بأنّ هناك مصيبة كبيرة ستأتي، وأمي تقول بأعلى صوتها، يا لطيف يا لطيف يا لطيف .

أصوات شبابيك تتكسر وتتحطم، وبكاء أطفال وصراخ يعلو المكان .

نداءات استغاثة . . يا الله. . . . . . . .يا الله. . . .يا الله. . . . .

وأنا واقفة مكاني، أنتظر سماع صوت الإنفجار الناتج عن القصف، وكلّي أرتعش بطريقة لا يجب أن أرتعش بها كطبيبة، لكن حدسي كان يخبرني بأنّ هناك شيء يفوق الوصف سيحدث، وحاستي السادسة لم تخطئني يوماً .

ولعلّ أكثر ما أتعبني في دنيتي، هو امتلاكي لشيءٍ أبله كالحاسة السادسة تلك .

أغمضتُ عيني وأنا أقول في سرى، رحماك يا الله .

اللهم إنّا لا نسألك ردّ القضاء، ولكنّنا نسألك اللطف فيه .

ودوتْ الدنيا من حولي بصوتٍ أظنه يشبه صوت قيام الساعة، صوت كاد أن يفقدني حاسة السمع، وأصوات أناس تكبّر، علا صوتها على صوت الإنفجار.

كان عليّ الآن أن أتصرف كطبيبة، لبست حجابي وخرجت مسرعة إلى الشارع، لأرى ما الذي حدث، وأمي تقولي لي (الله يحميكِ، الله يحميكِ) .

حينما خرجت لم تكن الرؤية واضحة أبداً، فغبار القصف قد ملأ الجو، ورمال تخنق تنفسي، رجال يركضون في الشارع، وأصوات سيارات إسعاف وصراخ، نوتة موت موسيقية يعلو صوتها في بلدٍ، كان منذ ثوانٍ يضجّ بالحياة .

رأيتُ محمود أمامي :-

- محمود، أين القصف ؟ .

كان يبكي كثيراً، ويقول لي المدرسة يا دكتورة، المدرسة .

يا للهول، المدرسة؟؟!!

هل تراني سمعت جيداً، أم أن صوت القصف قد أثّر على سمعي؟؟ .

أيعقل أن تُقصف مدرسة ؟.

مدرسة يا بشر !! أين الإرهاب في ذلك ؟

أيجب عليّ الآن، أن أطبّب أطفال، وأرى جثث آخرين، اللهم امنحني قوة،اللهم قوة، قوة تجلعني أستطيع تحمّل هول الموقف ووجعه، ركضت مسرعة مجتازة كل تلك الصرخات والدموع، شققتُ طريقي عبر شظايا القصف و غبار الردم .

وصلت إلى المشفى، وتوقفت لدقيقة قبل أن أدخل، قرأتُ الفاتحة . .

(بسم الله الرحمن الرحيم. .

الحمد لله رب العالمين *الرحمن الرحيم *مالك يوم الدين *إيّاك نعبد وإيّاك نستعين* اهدنا الصراط المستقيم *صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

صدق الله العظيم .

كنت أحتاج إلى شيءٍ روحيّ يقويني ويسندني، كنت أتمنى لو أنّني أملك من الوقت أكثر، لأقرأ الكثير من الأدعية والقرآن، لكن لا وقت .

أصوات كثيرة من داخل المشفى تنادي :-

دكتورة حبيبة، دكتورة حبيبة، بسرعة الوضع في الداخل صعب جداً .

دخلت ألبّي النداء مسرعة، كلّ شيءٍ من حولي مرعب مخيف .

أشلاء أطفال، دماء أطفال، جثث لأطفالٍ صغار قد كوّمت فوق بعضها .

وأنا . . . ؟ .

أنا التي يجب عليّ أن أداوي كل أولئك الأطفال، بكيتُ بصوتٍ عالٍ لم أعدْ أرى شيئاً أمامي، فدموعي تلك وضعت سحابة أمام عيني، جعلت كل شيءٍ أمامي مغبشاً، غير واضح الصورة، لكن يداً ما ربتت على كتفي:

- حبيبة عرفتك قوية دوماً، نحن اليوم بحاجتك، لأجل كل تلك الدماء لا تبكي، كوني قوية .

التفتُ إلى الوراء لأرى صاحب تلك اليد، كانت معلمتي ليلى وقد تغيّر، شكلها وجهها ملئ بالجروح، وثيابها السوداء استحالت إلى ثياب بيضاء من آثار الرمل والغبار علييها .

في خدها الأيمن شظية صغيرة، جعلته ينزف ببطءٍ، ليرسم خط دماء يصل بين خدها وذقنها، التي تنقط ببطءٍ شديد قطرات دم غالي علي . .

لم أقلْ لها أي كلمة، إنما ضممتها، صرت أبكي، شعرتُ وكأنّي قد عدت إلى مرحلة دراستي الإبتدائية .

أخذت منها قوة وطاقة بمجرد عناقها، لا أعرف، ربما روحي وروحها قد اتصلتا في تلك اللحظة، ليخلقا في داخلي روحاً أقوى وأشد صلابة .

صرختُ بأعلى صوتي :-

- بسرعة التخدير .

لكن صوتاً من بعيد أجابني بيأسٍ :-

- لا يوجد تخدير دكتورة حبيبة .

حاولنا خلال الفترة الماضية أن نحصل عليه، ودفعنا الكثير لكنه لم يصل إلينا حتى الآن .

رباه، لَمَ أنا ؟ .

أعليّ أن أداوي كلّ أولئك الأطفال، وأخيط جروحهم من دون تخدير؟ .

أعليّ أن أعيد تركيب أوصالهم المقطعة من دون تخدير ؟ .

للأسف الشديد يبدو أنّي سأضطر لفعل ذلك .

كان محمود شاباً من شباب قريتنا، ولربما كان مساعدي الأكبر في ظروفٍ كهذه، وزعنا المهمات بسرعة، فهذا يقيس نبض الأطفال،لنستطيع تمييز الحى من الميت فيهم.

أما الأحياء فيُوضعون أمامي تبعاً لدرجة إصابتهم، أما الأموات فيُوضعون في الأرض، ويغطّون حتى ننتهي ونتدبر أمر دفنهم .

وأناس خارج المشفى تبكي و(تولول)، كل منهم يريد الدخول كي يطمئن على طفله.

لكن الوضع لم يكن يسمح بذلك .

اضطررنا إلى قفل باب المشفى، والناس خارجاً تنتظر سماحنا لهم بالدخول .

كان محمود ومعلمتي ليلى، يثبتون الاطفال حتى لا يتحركوا وأنا أطبّبهم .

ليلي كانت تغمر رأسهم في حضنها، تقرأ الكثير من القرآن، ومحمود يحاول بكل قوته أن يثبّتهم ويوقف اختلاج روحهم، وأنا أضع في أجسادهم الصغيرة إبراً وخيوطاً .

إن كان كل أطفال العالم يبكون، عندما يصف لهم الطبيب حقنة لعلاجهم، فما بالكم بأطفالنا ؟ .

أوصال مقطّعة يُعاد وصلها من دون تخدير، إبر تشق طريقها داخل أوصالهم وهم يرتعدون ألماً ووجعاً .

وأنا التي أسبّب لهم كل هذا الوجع، كانوا يترجونني :-

– دكتورة (مشان الله أتركيني أموت، ما بدي أعيش، أنا عم أتوجع كتير، خليني أموت) .

وأنا أكمل عملي، وأحاول أن يكون متقناً بالقدر الذي أستطيع، لكن انتفاض أجسادهم الصغيرة بين يداي وارتعاشهم، يجعلني ألفظ روحي خارج جسمي مع كل صرخةِ وجعٍ منهم .

ليتني لم أكنْ طبيبة، ما كنت أحتجت أن أرى كل هذا الوجع أمامي، لكنني في الواقع (طبيبة) . . وعليّ أن أمارس مهنتي بأمانة، وأكمل عملي، لم أنهْ هذا كله إلّا بعد عشر ساعاتٍ متواصلة .

أما الحالات الأقل خطراً، فقد استلمها ممرض وطبيب مبتدئ غيري، فقد كان من المحال أن أنهي كل هذا الوجع لوحدي .

وبالرغم من أنّي لم أنهْ دراستي في الطبّ، إلّا أنّه أصبح عندي خبرة خارقة، على الأقل أظن أنّي الطبيبة الوحيدة في القرن الحالي، التي فعلت كل تلك الأمور من دون تخدير .

وأظنّ أنّي الطبيبة الوحيدة، التي بقيت واقفة عشر ساعات دون توقف، وهي تداوي أطفالاً صغاراً، أكبر واحد فيهم ما زال في ريعان طفولته.

يا إلهي، كم من الأطفال قد قطعت أوصالها اليوم ؟ وكم من الأطفال قد تشوهت

وجوههم ؟ كم من الأطفال ستدفن ؟ .

وكل أولئك الناس الواقفين خارج باب المشفى، ماعساه يحدث إذا ما دخلوا ورأوا هول المجزرة .

ثيابي ويداي ووجهي، قد امتلأوا بدماءٍ طاهرة بريئة زكية،أناس تبكي خارجاً .

وجثث أطفال مشوهة تنتظر أن تدفن، وأنا قد أنهرت في النهاية وجلست أرضاً، أسند رأسي إلى الحائط، وأجوب بنظري الغرفة الكبيرة في المشفى . .

بحق الله ما هذا ؟.

قد كان كابوساً، من المفترض أن يكون كذلك، فالواقع ليس بهذه الوحشية .

تحسستُ جسمي، أمعنت النظر في كل ما هو حولي، لم يكن كابوساً .

لقد كان حقيقة، وهناك على الطرف الموازي لعالمنا أناس يعدون تقاريرهم الإخبارية عن الذي حدث، سحقاً لهم ولتقاريرهم .

سحقاً للعالم الذي يرضى أن يحدث بنا كل هذا، وهو خانع صامت .

حينما خرجت من المشفى، كان أهالي الأطفال في الخارج، يبكون ويشهقون فهذا قد شُلّ ابنه، وهذا قد مات،وهذا لا زال ابنه تحت حطام المدرسة مجهول المصير.

عدتُ إلى البيت كنت منهارة بطريقةٍ لا أستطيع وصفها ، وكل شئ من حولي خيال لأشلاء أطفال، قد كانوا مشاريع أحلام، قد كانوا مشروع حياة .

قبل ثوانٍ من القصف فقط، كان أحدهم يتعلم كيف يكتب حروف الأبجدية، وها هو العالم اليوم ينسف أبجديتنا ، ويضع عوضاً عنها أبجدية التخاذل، كنت أريد أن أنام، فأنا متعبة حقاً ، لكني لم أستطع، ذاكرتي أعادت عليّ ما حدث في كلّ ثانية، كل شيءٍ رأيته عاد وحضر .

يا الله كم من الأطفال قد فقدوا أطرافهم اليوم ؟ .

من أين أتت لي تلك القوة ؟

كيف استطعت فعل ذلك، لكنني في النهاية وبفضل من الله وحمده استطعت، كان عليّ أنا والفريق الطبي أن نكون أقوياء متماسكين، علينا أن نكون كذلك حتى لا نخذل أولئك الأطفال، كما فعل باقي سكان المعمورة .

لم أنمْ، مستلقية في سريري أحملق في سقف غرفتي، وكأنّما كان السقف شاشة سينما تعرض لي كل ما حدث، ولكن عن طريق التصوير البطئ، ولا خيار لديّ لقلب المحطة، كنت أشاهد وحسب، سمعت صوت آذان الفجر يملأ الأفق من حولي . .

الله أكبر. . الله أكبر. . الله أكبر. . الله أكبر. .

أشهد أنّ لا إله إلا الله. . أشهد أنّ محمداً رسول الله

حيّ على الصلاة . . حيّ على الصلاة . .

حيّ على الفلاح . . حيّ على الفلاحِ . .

الله أكبر الله أكبر . . لا إله إلّا الله .

كان صوت المؤذن يبعث في نفسي راحة، أنستني للحظةٍ وجع الأمس، كان صوت الآذان جميلاً عذباً حلواً، وكان (أبو علي) مؤذن المسجد الأقرب إلى بيتي يملك صوتاً حنوناً، يجعلني أبكي كلّما كبّر للصلاةِ أو دعا .

ما أحلاها من كلمة (الله أكبر)، الله أكبر على من طغى وتجبر، الله أكبر على من خذل، الله أكبر من وجعنا ومن آلامنا، نهضتُ من سريري وتوضأت .

كنت أشعر بمياه الوضوء تغسل آلامي، تغسل خيبتي، وتمسح مني هول الذي حدث .

مددتُ سجادة الصلاة في صالة البيت، وأتجهت إلى القبلة، صليت ودعوت الله كثيراً وبكيت، رجوت منه الرحمة والعفو .

وطلبت منه أن يغفر لي، إن لم يكن عملي متقناً بالأمس، لكن كل الأشياء حولي كانت تتعبني، وتجعلني أرتجف وأنا أعمل .

بقيت على سجادة صلاتي وقتاً لا بأس به، كنت أنظر الى القمر من شباك الصالة، وهو يرحل معلناً غيابه، لا أعرف إلى أين سافرت روحي ساعتها ؟

لكنّي فجأة استوعبت، أنك لم تخطر ببالي الأمس أو اليوم، الحمد لله لقد بدأت أشفى منك ياغالي .

سجدت لله شاكرة باكية، أنّه بدأ ينزعك من كياني، نهضت من سجودي واتجهت فوراً إلى سريري ونمت .

لم يعد بمقدور عيني أن تفتح للحظةٍ أكثر، وما عاد بمقدور جسدي النحيل أن يقف أكثر .

نمت وقتاً كبيراً، لم أستيقظ إلا على صوت أمي، قالت لي :-

- حبيبة، الأستاذة ليلى عندنا تريد رؤيتك .

نهضت من سريري متثاقلة، أجرّ كل وجع الأمس معي، وكأنّما أحداث البارحة قد استحالت إلى أكبالٍ تقيدني، فلا أقوى على الحركة أو المسير .

كانت الأستاذة ليلى جالسة في غرفة الضيوف، دخلت إلى الحمام غسلت وجهي، ثم دخلت إليها .

- أهلاً وسهلاً معلمتي الفاضلة .

كنت أعرف أنّها لم تأتْ إلى بيتي، لمجرد زيارة عادية، أعرف أنها كانت تريد أمراً مهمّاً، ومهمّاً جداً جداً أيضاً، ولولا ذلك لما جاءت إليّ .

- حبيبة. .هل من السهل الحصول على أطرافٍ صناعية، لأولئك الأطفال الذين بترت أطرافهم .

- ليس سهلاً، إنّما ليس مستحيلاً، نستطيع تأمينه مثلما نؤمن الدواء والعلاج، لكنّه سيحتاج إلى وقتٍ كبير، وإلى مبالغٍ مالية أكبر .

- لا يهم طالما أنّ ذلك ليس مستحيلاً .

لا أعرف لم أتتْ الأستاذة ليلى، لتسألني سؤالاً كهذا ؟ .

لكن الإجابة جاءتْ إليّ بعد أسبوعٍ تماماً، حينما جاءت إليّ مرة ثانية .

- حبيبة أنا قد بعت جميع أملاكي لرجلٍ خارج البلدة، وهو سيتكفل بتأمين الأطراف الصناعية والأدوية للأطفال جميعاً. . وقد حولت بيتي إلى مدرسة، ليست كتلك التي قصفت،لكنها تفي بالغرض حالياً. . الآن دورك أنتِ، خذي مقاسات الأطراف وأعدادها، وحددي أنواع الأدوية التى تحتاجينها، وكل شيء ناقص في المشفى، حتى أؤمنه لكِ .

ليلى تبيع كل ما تملك كي تساعد الأطفال الذين اختارتهم الطائرة البشعة لتؤذيهم،

وتحوّل بيتها إلى مدرسة وتأبى الإستسلام، تأبى الخنوع، وأنت ياغالي تبرر كل أفعالك بأنّها دفاع عن الوطن ؟ .

بربّكَ أىّ وطنٍ هذا الذي تتحدث عنه يا غالي ؟.

...

كنت أدندن غنوة الوطن، كلّما غفت ذاكرتي على كتف الوجع، ينساب الوطن داخلي، كدولفين أزرق ندىّ، دولفين لايستطيع أن يعيش بلا ماء، ويموت بلا هواء، كنت أنت الهواء يا غالي، ووطني هو الماء .

كيف لدولفين أن يتخلى عن أحد سُبُل تنفسه دون أن يموت ؟.

كنت تملأني حباً وحياة، لكن الوطن يحتويني .

أىّ مقارنة مع الوطن في ميزان قلبي أو عقلي، سيغلب فيها الوطن .

صحيح أنّي لم أكن قد جربت الغربة، لكنّي كنت أدرك تماماً كيف تغتال الغربة إنسانيتك وكرامتك، الغربة كابوس لا يستوعب مباشرةً، الغربة زمنٌ حتى تستطيع حواسك استيعابها .

الغربة علقم لا تشعر بمرارته، إلّا بعد ارتوائك منه .

حلاوة حبنا لم تكن لتقتل علقم الغربة .

لم أخرج خارج أسوار وطني، لكنني كنت أعيش في غربة .

قلت لي ذات يوم :-

- أيّ أسوارٍ تلك التي تتحدثين عنها يا حبيبة ؟؟

انظري من حولك، ليس للوطن أسوار، كنت مخطئاً يومها، وطننا جنة جميلة .

أسوارها من وهمٍ وخداع، جميعنا ألفنا العيش فيه، لكننا بحاجة لكسر كل تلك الأسوار حتى نعيش بحرية .

...

حرّية

حرّية تلك الكلمة التي تحتل معظم الدول كتابياً و دستورياً، أما فعلياً فهي ليست إلّا تهمة من درجة جناية في حق السلطة .

الحرية ليست في مفهوم السلطة سوى التسلط، ليست السلطات ككلٍ كذلك، لكن يكفي بعض رجالها، الذين يتسلطون عنوةً عن إرادتنا، ثم يخرجون في المؤتمرات والمناسبات الرسمية، ليحييوا الشعب بكلّ غباء بتحيّة حرية! !

أتدري ؟.

أصبحت أنا اليوم تماماً مثل وطني، أتبع أسلوب التصاريح و الحدود .

أجل أنت صاحب قلبي، لكن لا أستطيع السماح لك بالدخول، فليس لكل أعذارك

توقيعاً مناسباً، يفوض أوجاع قلبي أن تسمح لك إجتيازه .

...

قصاصة ذاكرة ٢٠٠٧

الجو حولي حارٌ جداً يحرق أعصابي، و ما يوترني أكثر أمي لا تفتر جيئة وذهاباً، أنّه يوم إعلان نتائج الثانوية العامة، لحظات صعبة جداً .

تلك اللحظات أشبه بلحظاتِ الولادة، تلد مستقبلنا، أنا قلقة جداً . . في مناورةٍ مع الحيرة، أرسم في أحلامي ألواناً تلوّن واقعي .

و لا أحد يستطيع قتل عالم الألوان داخلي، في مساء يومي هذا،شعرت لأول مرة بالغرور، فأنا من الطلاب الاوائل على مستوى القطر، القرية كلها مجتمعة في بيتنا .

روائح الحلويات الدمشقية الشقية، كانت تداعب مشاعري، فغالباً ما ترتبط تلك الروائح، بالأفراح و الأعراس عندنا، و أحياناً أخرى ترتبط بالموت .

ولى يومي مسرعاً بشدة، لم يعلق بي منه سوى رائحة الحلويات، وعناقيد أمنيات، بأنّني سأكون طالبة جديدة في كلية الطب البشري، كما كان حلم والدي رحمه الله .

أنا فرحة جداً، وكلي سعادة، كان دخول الجامعة بالنسبة لي هو الحلم الجديد، حلم الواقع، أن أكون طبيبة كما أراد والدي، وكما أردتُ أنا .

كنت أشعر في الطبّ قوة غريبة، أن تتأقلم مع مشاهد الوجع والألم، أن تعتاد رؤية الأوجاع، يجعلك أصلب و أقوى، وأكثر طيبة .

حينما ترى أوجاع الناس من حولك، بكائهم، ابتسامتهم، وكل شيء يتعلق بمهنتك كطبيب، تشعر بنعم الله عليك .

حينها تدرك أنّ للألم أنواع شتّى قد نجّاك الله منها ،فتحمد الله وتشكره على ألمك، لأنّه أقل ألماً من غيرك .

عندما قرأت مذكرتي، تمنيت لو أنّ شيئاً حينها تغير، لو أنني لم أغادر قريتي، لما تعرفت عليك .

انقطعتُ فترة كبيرة عن الكتابة، كنت مريضةً جداً، أمرضتني فضفضتي إلى الورق، كنت أحتاج أن أشفى منك، حتى أستطيع البوح .

لكنني وروايتي كلانا على يقينٍ، بأننا لن نشفى منك .

أنت مرضٌ عضالٌ يا غالي، مرض لم أستطعْ أنا كطبيبةٍ أن أشفي نفسي منه.

كنت أقف أمام وجع مرضي بك عاجزة، كما وقفت مرات كثيرة أمام أناس يموتون قهراً ووجعاً وألماً، ولا تستطيع عقاقيري البسيطة أن تصل إلى آلامهم فتوقفها .

كنت أخذل الجرحى في المشافي الميدانية، كما أخذل نفسي اليوم في شفائي منك.

حدثني هنادي بأن روايتي هذه، ستقتل كلّ الأوجاع التي استوطنتني عمراً كاملاً ، و أنا لا أشك في كلام هنادي .

على الأقل هي الوحيدة التي لم تخذلني إلى اليوم .

كنت أكتب في غرفتي، وعيناي تطّلان من النافذة إلى أيام خلت، أيام يذكرني بها أي شيء .

كان يومي ماطراً، تماماً كذاك اليوم قبل عشرين عاماً .

كنت قد أنهيت آخر امتحان نصفي لي، خرجت من قاعة الامتحان لأجدك تنتظرني خارجاً، وقد بللت مياه المطر ثيابك ووجهك .

كنت أمامي شاباً ساحراً، كلوحةٍ فنية ألقيت تحت المطر، فزادها مزج ألوانها سحراً .

صرتُ أضحك كثيراً، عندما رأيتك و قد تشوه مظهر شعرك ا، لذي طالما كنت تهتم بتصفيفه مستخدماً كل أنواع (الجل) .

كنت وسيماً بإحتراف، ركضتُ إليك مسرعة، فتحت مظلتي و جلست بقربك، على ذاك الكرسي الخشبي المهترئ، أخرجت منديلاً و مسحت وجهك، كنت تحدق إليّ بعينين قد سكنهما العشق .

لا أعرف كيف أتصرف عندما تنظر إليّ بهذه الطريقة، تفقدني قدراتي على التركيز والتعبير و الكلام، كم كنت ساحر يا غالي !

سألتني يومها :-

- كيف كان امتحانك، جميلٌ مثلي أم مشعثٌ مثلك ؟؟.

قلت لك :-

- كان امتحاني وسيماً جداً، وسيماً حد اللهفة .

حاولت أن تمسك يدي فسحبتها، تداريت أنك بذكائك الذكوري الموقف، وقلت بغضبٍ يمتزج برجفة :-

- هيا الفطور ينتظرنا . . .

كان فطورنا كالمعتاد دوماً، (كروسان) مع كأسٍ من الشاي الساخن .

لا تزال رائحة الكروسان إلى اليوم توقظك فيّ، وتوقظ معك أوجاعاً لأطفالٍ ماتوا جوعاً، وهم يحلمون بقطعة خبزٍ يابسة .

أطفال يموتون قهراً، طفل يعيش و يموت دون أن يعرف شكل الخبز .

طفل يسأل أمه كيف هو طعم الخبز يا أمي ؟؟

و هل هناك خبز في الجنة ؟؟ .

هناك الكثير من الخبز في الجنة يا صغيري، ستعيش في جنتك عارياً عن كل أنواع الخذلان .

طعم الخذلان مرٌّ لا يغتفر، لا أحد يستطيع أن يغفر الخذلان، الخذلان صعب جداً، عندما تخذلك حياةٌ بأكملها .

حياة تجعلك تعيش عمراً، لا يشبه عمرك الذي كان من المفترض أن تعيش .

عمرٌ يخذلك فيه الهواء المسموم بأسلحة الكيماوي .

و تخذلك فيه لحظات الهدوء، عندما تقتلها أصوات براميل متفجرة، تفجر كيانك وروحك قبل أن تفجر جدران منزل عشت عمراً،وأنت تعمل من أجل أن تبنيه .

براميل متفجرة تدمر بلداً، ولدت فيه و ترعرعت فيه، فلا يبق إلّا حطام ذكريات، ومنازل قد انقضت فوق رؤوس سكانها .

انتشلت جثث بعضهم وبقيت جثث، لتروي قصة طفلة لا زالت ترضع زجاجة الحليب، و قصة امرأة كانت تعد الشاي لزوجها، و قصة أم تحمل طفلها و تلعب معه.

فتأتي قذائف وبراميل، لتقتل كل أولئك (الإرهابيين)، قصص كثيرة ومؤلمة . . قصص مهما كتبت تبقى قليلة أمام الواقع .

ذات يوم رآني الحاج (ابو علي) مؤذن القرية، وأنا أبكي في الشارع، لأنّ هناك طفلاً قد مات، نتيجة سوء التغذية بسبب الحصار الخانق الذي فرض علينا .

رأيته ينظر إليّ ويبتسم بسمة أمل .

- خليها على الله، والله بعمره ما رح يتركنا .

رجل مثل الحاج أبوعلي تحمّل أهوالاً كثيرة، وهو لا يزال مبتسماً مؤمناً بقضاء الله وقدره. . كانت قصته موجعة ومؤلمة، حدثت منذ زمنٍ ليس ببعيد، حدثت قبل أن يفرض علينا هذا الحصار الخانق، الذي اضطررنا فيه إلى أن نأكل طعام (الدواب)، حتى لا نموت جوعاً .

على كلٍّ كانت قصة أبو علي، هي الفاجعة الأولى في تاريخ مجازر القرية .

...

الفاجعة الأولى

كنا في مراحل الأزمة الأولى، لم نكن قد عانينا صنوف الأوجاع كلها، كان يُخيّل إلينا في حينها، أنّ ما يحدث بنا هو أشد أنواع الوجع والقهر والعذاب، ثم اكتشفنا فيما بعد، بأنّ ذلك لم يكنْ شيئاً، كنا في البدايات الأولى .

كانت الشوارع والساحات تعجّ بالمارة قبيل الظهيرة، وفجأة حصل اقتحام كبير لبلدتنا . . ما كان من الناس إلّا أن أسرعت خائفة إلى بيوتها ،فالاقتحام كان مدججاً بالسلاح، ونحن وقتها لم نكن نملك أدنى شيء ندافع به عن أنفسنا، إذا ما أعتدي علينا .

وخلال لحظات أصبحت الشوارع والساحات خالية مقفرة، لا أحد فها سوى جنود مدجّجة بالسلاح، تبحث عن بقايا هتافات، عن صدى أصواتٍ كانت تصدح بالأمس مطالبة بالحرية .

لا أعرف عمّا كانوا يبحثون، ربما جاؤوا فقط حتى يدخلو الرعب والقلق والخوف إلى القلوب .

الناس كانت تحذر بعضها من النزول، فشكلهم لم يكن يدل أنّهم قد أتوا على خير، الناس كلها في البيوت، ووحدهم الأغراب يملأون الشوارع .

حان وقت صلاة الظهر .

فما كان من الحاج (أبو علي) إلّا أن فتح باب بيته، ونزل متخذاً خطواته نحو المسجد ليؤذن لصلاة الظهر .

أوقفه أولئك الأوغاد، وأخذوأ يتكلمون معه بطريقة مهينة، وهو الرجل الفاضل الحافظ لكتاب الله .

– من أنت ؟ . لَمَ نزلت ؟، وما الذي تريده ؟

أجابهم بكلّ طيبة :–

– أنا مؤذّن المسجد اسمي (أبوعلي)، وقد حان موعد الصلاة، وعليّ أن أرفع الآذان يا ابني .

فنظر إليه ذلك الوغد محتقراً كلامه :–

– أتنزل ونحن هنا نجوب الشوارع، تخرق حرمة الاقتحام، والله أنك رجل سيء الأخلاق، لعنكَ الله أنت وأمثالك .

– سامحكَ الله يا ابني .

- لا تقل ابني .

- حسناً كما تريد، حفظك الله لوالدك وحفظ لي أبنائي .

- ألديك أبناء ؟ .

- أجل، الحمد لله لديّ خمسة أولاد .

- أين هم ؟ .

- في البيت .

ما كان من ذلك الوغد، إلا أن تمتم مع جنده بعض الكلمات، ثم ساقوا الحاج (أبو علي) إلى أمام بوابة عمارته .

هناك حيث يسكن مع أولاده الخمسة، الذين آثر أن يربيهم وحيداً،على أن يجلب لهم زوجة أبّ، بعد وفاة زوجته الحاجة (أم علي) .

أنزلوا أولاده الخمسة أمام عينيه .

علي وعمر ومحمد وأحمد وحمزة، شمعات عمره الخمسة .

أولاده الذين لا أحد في كل الكون، يعلم كم تعب حتى رباهم من دون أمٍّ تعتني به.

كم من الدعوات قد حوّطهم بها، حتى رآهم أمام عينيه رجالاً وشباباً، و(فرح بهم) كما يقولون، وها هو ينتظر الحفيد الثاني من ابنه علي، والحفيد الأول لعمـــــر،

وينتظر أن يعقد قران محمد وأحمد عمّا قريب .

لكن يبدو أنّ الموت، هو الذي عقد قرانه على أولاده جميعاً .

كانوا يريدون أن يؤدبوا ذلك الشيخ المسكين، لأنّه تجرّأ ونزل إلى الشارع، من أجل أن يؤذن للصلاة .

أدبوه إذاً، وأعدموا أولاده الخمسة رمياً بالرصاص أمام ناظريه .

لك أن تتخيل أنت شعوره، وهو يرى أولاده الذين أفنى عمره في تربيتهم وتنشئتهم، يموتون رمياً بالرصاص دفعة واحدة أمام ناظريه، وهو يجحظ بعينيه اللتين تأبيان أن تصدقا ذاك الذي قد حدث أمامهما .

لكنّه حدث، وعين المرء لا تخطئه أبداً .

في الحقيقة قصة كقصة الحاج (أبو علي)، لا تحتاج مني سطوراً و كلمات كثيرة لأكتب نهايتها .

فكلّ واحدٍ منّا الآن، يشعر بغصةٍ في حلقه وروحه، لا تساوي أي شيء أمام الوجع والغصة، التي أحسّ بها ذاك المقداد يومها .

وقف أبو علي صامتاً مذهولاً، وهو يرى أجساد أولاده قد كوّمتْ في الأرض، فوق بعضها تغص بالدماء .

وزوجة علي وزوجة عمر تصرخان، وتملأن الدنيا عويلاً ونواحاً .

للمرة الأولى لم يرفع آذان الظهر في المسجد، صلى الناس صلاة الظهر من دون آذان.

وحينما رحل أولئك الخونة، الذين يدعون أنّ كلّ ذلك كان من أجل تأديب الناس، فلا يخرجون مرة أخرى منددين بالسلطة .

اجتمع الناس وأخذوا جثامين الشهداء، وشيعوهم إلى ثراهم الأخير .

الكل كان يبكي، ويردّد بصوتٍ تخنقه الدموع. .

لا إله إلّا الله. . .لا إله إلّا الله. .

الشهيد حبيب الله. . . .الشهيد حبيب الله. . . . . .

لا إله إلّا الله. . . . . .لا إله إلّا الله. . . . .

الشهيد حبيب الله. . .الشهيد حبيب الله. . . .

كان أبو علي يقول الحمد لله، الحمد لله، لله ما أعطى ولله ما أخذه .

شيخ في الثمانين من عمره، يقف صلباً قوياً أمام ما حدث، وخنساوات كثيرة في بلادي وقفن أيضاً، صامدات قويات .

فمن نحن حتى ندّعي أنّنا ظلمنا في الحياة ؟؟ .

وهل كلّ الذي مرّ بنا، يعادل قليلاً ممّا مرّ به أمثال أولئك ؟

لا أظن، على كلٍ لا زال الحاج أبوعلي يرفع الآذان كلّ يومٍ في مواعيد الصلوات الخمس، ولم يوقفه عن ذلك إلّا منيته، التي وافته بعد استشهاد أولاده بأربعة سنين، ودفن أمام أولاده في نفس المقبرة .

عسى الله أن يجمعه بهم في الجنة، وعساه أن يغفر لنا تخاذلنا وصمتنا .

عساه....

...

لا أستطيع أن أتخيل كيف يوجد أناس بهذه الوحشية، مهما كان انتمائهم السياسي، أو العرقي أوالديني، كيف يستطيعون فعل هذا ؟

كيف يرمون بقذائفٍ وصواريخ على بلد ٍ مأهول بالمدنين، وكأنهم يرمون صاروخ خلال لعبة من ألعاب (البلايستشن) ؟

كيف لا يتخيلون منظر الدماء والأشلاء بعد مقتلهم ؟

حقيقة لا ألومهم هم، كونهم رجال ربما قد تخلوا عن قلوبهم، وأصبح القتل و الموت مجرد سلعة تجارية يربحون بها أموالاً، تعميهم عن كل شيءٍ سواها .

لكنّي ألوم نسائهم،أمهاتهم، زوجاتهم، حبيباتهم . . كيف يسمحن لهم بفعل هذا ؟

كيف تستطيع واحدة منهن، أن تضمّ رجلاً إلى صدرها كان قبل ساعاتٍ، قد ارتكب مجزرة ؟

كيف يستطيع هو أن يلاعب أطفاله، وقد قتل أطفالاً رضّع، قبل أن يضمّ أطفاله بسويعات ؟

كيف تستطيع امرأة أن تسمح لرجل مثله بتقبيلها ، وقد كان في ذات الصباح قد اغتصب شرف فتاة أخرى ؟

كيف يستطعن ألا يشعرن بالقرف ؟

ألا يشعرن بأّنهن قد أصبحن فعلاً بلا ضمير، وأين مشاعرهن كنساء ، يتغلب فيهن نزعة اللطف والحبّ على نزعة الحبّ والقتل .

...

الإرهاب

الإرهاب هو المصطلح الذي كنت تحاججني دوماً فيه، تخبرني بأنّه هوالذي دمر الوطن، و ليس أنت .

كنت كمن يحضر الأرواح لا زلت تذكر الإرهاب، وتذكره حتى جاء .

لماذا فعلت هذا يا غالي؟ أجبرتني أن أتخلى عنك، عندما كنت في أمسّ الحاجة إليك . كنت أحتاجك بمقدار يفوق الفوارق بيننا، كنت أحتاجك وكفى . أحتاجك كغذاءٍ و هواءٍ وماء، أحتاجكَ ككون لا أستطيع أن أراه إلا بك.

فأين أنت منّي اليوم يا غالي ؟؟

كنت قد أنهيت للتو حرباً شرزة مع ذاكرتي، يخيّل إليّ أنّني قد اغتلت كل ماضينا فيها، اغتلت أيضاً كل تلك الدعوات التي طالما دعوتها لك أثناء سجودي .

لكنّي على يقينٍ بأنّ كل تلك الدعوات، لم تقتل إلا في ذاكرتي، لكنها هنالك في السماء لا تموت. . عسى الله أن يستجيب لواحدةٍ منها، فقد كانت صادقة، صادقة من صميم قلبي.

كنت أدعو الله لأجلك كثيراً، أدعوه أن يهديك ويرشدك إلى طريق الصواب .

أدعوه أن تعود غالياً كما كنت، لأستطيع أن أعود إليك من جديد .

■■■

قصاصة ذاكرة - دمشق ٢٠١١

أنهيت صلاتي لتوي، وبقيت ماكثة قرابة الساعة، أبتهل وأدعو الله أن يهديك إلى طريق الصواب، أدعوه ألا يجعل لك يداً في إغتيال الوطن .

وإن كان قدرك أن تكون سفاحاً، من أولئك الذين يقتلون الوطن باسم الوطن، فأتمنى ومن كل قلبي أن يغفر الله لك، أن يقربك من الجنة بأي فعلٍ طيبٍ قد فعلته.

لكن للأسف كل شئ يقربك من نهايتك، أحبك جداً ولهذا أدعو لك سراً .

أحبك جداً وأتمنى دوماً بمقدار حبي لك، لو أننا لم نلتقْ .

...

الوطن

لا زال فنجان قهوتي أمامي لم أرتشفْ منه ولو رشفة، أوراقي مبعثرةً أمامي، لا تزال بيضاء لم يخطّها قلمي، أفكاري مبعثرة أيضاً كتلك الأوراق،لا أعرف ماذا أريد أن أكتب، لقد أصبت بالشلل الأدبيّ، ذاك الشلل الذي لا يصيب عادة إلا كاتب يكتب عن ذاته .

ذات يوم حدثتني عن حبّك لمحمود درويش، قلت لي أنه شاعرٌ رائع يتحدث بلسانك، يتحدث عن قضية .

يقول درويش (فارس يغمد في صدر أخيه خنجراً باسم الوطن ويصلي لينال المغفرة) .

ألا تظن أنه ربما كان يكتب عنك، أي قضية تلك التي تقربك من انسانٍ كدرويش؟؟

فقررتُ أن أشرح لك، كيف أنّ قضيتك التي تتبناها ، لم تكن إلّا وهماً عشته أنت وأمثالك، من الذين باعوا الوطن ليشتروا أسيادهم .

ما هو الوطن ؟

(ما هو الوطن ليس سؤالاً تجيب عنه وتمضي، أنه حياتك وقضيتك معاً)

محمود درويش . . .

الوطن يا غالي لم يكن يوماً كرسياً أو منصباً، الوطن ليس مناصب ولا أفرع مخابرات، ليس إلهاً مزيفاً نصفق له كلما ألقى خطاباً .

الوطن هو ذاك المكان الذي تشعر فيه بالأمان، حيث يوجد بيتك رفاقك، ذكرياتك، هو فسحة الأمل البعيدة، هو تلك التفاصيل المملة، التي لا تشعر بقيمتها إلا عند فقدانها .

هو صوت جارتك الثرثارة، صوت البائع الجوال وهو يملأ الحي بضجيجه .

هو مهد ذكرياتك الأولى، سجل طفولتك، وريعان شبابك .

هو أشياء لا تسعها السطور، أشياء تشعر بها، لا تستطيع أن تكتبها أو تحكيها، تماماً كحالة السلام الروحي التي تصل لها بعد كل صلاة .

حالة من التناغم الروحي، الذي يجعل أعماق روحك تنتشي فرحاً .

شعور لا تستطيع وصفه .

وبالرغم من أنّ الوطن، لا يقوم إلا بالسلطة والدولة، لكن يجب علينا أن نحاول تغييرهما، في حال كانتا سبباً في ظلم الوطن .

أما الوطن فهو واحد يا صديقي واحد لا يتغير، بينما تتعدد الحكومات والمناصب تذهب وتأتي، وحده الوطن يبقى صامداً دون حراك .

فلماذا أنت مصرٌ على قتله ؟؟ .

وهل يكون قتل طفل صغير، بحجة أن منزله قريبٌ من تجمعٍ للمسلحين إحياء للوطن ؟؟ بربّك كفى، قد مات الوطن بأيديكم يا من كنت بالأمس صديقي .

كنت أتذمر كثيراً، لأنّي لم أستطعْ إلى اليوم أن أتخصص في المجال الذي أريد كنت كل يوم أبكي أحلامي، تلك التي ضاعت مني بسبب الظروف،لكني كنت أشعر بقيمتي كطبيبة وإنسانة .

أشعر بأنّي خسرت شيئاً مهماً، قد كان بالأمس حلمي لكنني بالمقابل كسبت أشياءً أهم .

استطعت أن أكسب نفسي وروحي وضميري، استطعت أن أكسب جولتي مع الحياة، وأن لا أقف مكتوفة الأيدي، مكتفية بمشاهدة وطني ينزف، دون أن أفعل شيئاً وأنا الطبيبة التي لم أكنْ كذلك لولاه .

كان لابد لي وأنا في السنة الرابعة من دراستي للطبّ البشري، أن أتفرغ تماماً للعمل في المشافي الميدانية (الإرهابية)، كما تسميها أنت .

كانت تغص دوماً بمئات الجرحى والشهداء، و(الإرهابيين) الصغار، الذين لم تتجاوز أعمارهم السنتين .

أصغر إرهابية رأيتها كانت قد دخلت الرصاصة أحشائها، وهي لا تزال في رحم أمها .

أجل في رحم أمها، كانوا يقيمون شرطاً فيما بينهم، من ذا الذي يستطيع أن يدخل الرصاصة في رأس الجنين، وهو داخل بطن أمه فيقتل الأم والجنين .

أعرف أنّه أمر خارج عن نطاق التصديق،لكنه للأسف حقيقة علينا تصديقها .

كلما تذكرت كل تلك الدماء، كل تلك الصرخات، بكاء الثكالى ونحيب الرجال، أشعر بحقدٍ وكرهٍ يملأ قلبي، تفيض جوارحي حنقاً وكرهاً لكَ ولنفسي .

أعاقب روحي التي تأبى غصباً عني إلا أن تحبك، تباً للحبّ كم يتحكم بنا .

حبي لك يحاول اغتيال طيبتي، يزرع فيّ شراً أكرهه، لكني لا أستطيع التوقف عن حبك، أكره نفسي بمقدار ذاك الوجع الذي أراه في عيون الناس .

وأمستْ حياتي بفضلٍ منك معتمة، لا أثر للنور والشمس فيها .

كنت محقاً يوماً عندما أخبرتني، أنّ أصحاب القضية لا يبيعون قضيتهم .

كنت تسألني لماذا غادر معظمنا الوطن ؟

وها أنا أجيبك الآن .

في بعض الأحيان تكون القضية أكبر من قدرات أصحابها، فتسحقهم وتمشي، دوماً أعتبر أنّنا أناس على قدر قضيتنا، لكن كل تلك الأطراف التي عبثت بنا، جعلت القضية أكبر منّا .

فسحقنا نحن وأصبحت أحلامنا وآمالنا، ملجأ لكلّ القوى الغريبة، فتحققت غاياتهم هم، وماتت أحلامنا نحن، تشردنا، شعرنا بهواننا على الناس .

أصبحت كل الخيارات أمامنا مرة وعلقم، إمّا أن نموت ذبحاً وقصفاً وخنقاً،

أو نموت غربة وقهراً وحنيناً، أيّ ظلمٍ هذا يا غالي ؟

أن تضع بين خيارين لا ثالث لهما، الأول هو أن تبقي في وطنك الذي تحبه، وبالمقابل تتحمل كل أنوع القصف والتهجير، والموت والإعتقال والإضطهاد .

أو أن تترك وطنك وأرضك وبيتك وكل شيء، لتلجأ إلى غربة تقتل فيك حبك للحياة، أن يصير اسمك لاجيء، وتصبح كائن غير مرغوب به في الأرض الجديدة، التي

ستعيش بها وتتخذها مكاناً تقيم فيه بدلاً من وطنك، الذي تحوّل كل شيء فيه إلى كابوسِ قهرٍ مؤلم .

ما أصعب أن تكون أمام خيارين، أحلاهما مر وعلقم، أن يكون قرارك كحدّ السيف، كيفما أمسكته سيجرحك، طالما أنك لست قادر على الإمساك به من غمده.

أخبرني، إن كنت تحبني فعلاً، فلمّ سحقت أحلامي ؟

ومنذ متى يسحق الحبّ أحلامنا ؟

إن كنت تحبني فعلاً، فلمّ فعلت كل هذا؟ لَمَ لمْ تحاول ولو لمرةٍ واحدة في حياتك، أن تزيل قناع الطمع والجشع من على عينيك، وتنظر للأمور بشفافية .

لو وضعت ضميرك نصب أعينك مرة واحدة، ونظرت للحقيقة لأستطعت أن تراها، لكنك كنت بعيداً جداً عن الحقيقة .

بعيداً بمقدارٍ لن تستطع في يومٍ الوصول إليها .

ميتة مع وقف التنفيذ

كان يوماً بارداً شتوياً، كل شيء حولي حزين بأناقة، أنوار صفراء تشع عبر المدى، وغربة تملأ الأفق، وتستقل كل الطرق لتصل إلى قلبي .

كنت متكئة على النافذة، أحتسي كوب شايٍ أخضر، أراجع كل أيامي القديمة .

أحاول أن أقلب الصفحة، لكن وكأنّما عمري كله صفحة واحدة هي أنت .

لا أزال أذكر إلى الآن ذاك اليوم، يومٌ وحيدٌ تمنيت فيه لو أنني ضممتك إلى صدري، لكنني لم أستطعْ، لا أزال أذكر كل تفاصيله المؤلمة .

كنت في غرفتي حينما سمعت صوت قصفٍ دوى من بعيد .

- يارب الطف بنا .

خرجت إلى الشرفة لأرى دخاناً، وأعمدة نار تتصاعد من القرية المجاورة .

- اللهم كن معهم، حسبي الله ونعم الوكيل .

بعد حوالي القصف بنصف ساعة جاء إليّ محمود مسرعاً، يقول لي بأنّ هناك نقص في الكادر الطبي في القرية المجاروة، وأن الوضع هناك صعب للغاية، ويحتاجون إلى أطباء وممرضين .

جهزت نفسي وذهبت مع محمود على الفور،لأرى المشفى هناك في وضع صعب، والناس متوترة وأعصابها منهارة، فإشاعات كثيرة تقول أنهم سيقتحمون القرية بعد عملية القصف تلك .

طلب مني محمود أن أعود إلى بيتي، بعد تلك الأقاويل حتى لا أصاب بأذى إذا ما اقتحموا القرية، واستطاعوا الوصول إلى المشفى .

لكنني رفضت ذلك، وطلبت منه أن يذهب مسرعاً، ويحضر لي بعض الأدوية من المشفى عندنا في القرية .

كنت أحاول إخراج الشظايا من وجه رجل، قد غيبت الدماء والجروح ملامحه .

كان من الصعب عليّ تحديد تقاسيم وجهه، كان يأنّ أنيناً بالكاد أن يسمع، يقول بكل جوارحه : يااارب .

كنت أخرج كل تلك الشظايا دون أي تخدير، كان التخدير يومها رفاهية لا نستطيع أن نحصل عليها .

لم يكن ذاك الرجل يعلم وقتها أنّ الشظايا تلك، قد أصابت زوجته وطفلته الوحيدة، لتفارقا هذه الحياة البشعة إلى غير رجعة .

كان أهون عليّ أن أنثر ملحاً على جرحه، من أن أخبره أن عائلته قد استشهدت، كنت في حالة من اللا شعور،لم أعد أشعر بأي شيء، فقدتُ القدرة على البكاء وعلى السمع .

كان كل شيء أمامي منظراً عادياً،لكنّه ينهش روحي، وفجأة. . . . .

سمعنا أصوات خطوات ثقيلة من بعيد، ترجّ الأرض رجاً،أصوات كثيرة وصراخ .

أناس يقولون : لقد اقتحموا المشفى، لقد اقتحموا المشفى، ظننت حينها أنني سأفارق الحياة . . وأنا ها هنا وحدي أقف وجها لوجه مع الإعتقال أو الموت .

كان الموت بالنسبة إليّ هو الخيار الأفضل، من أن أزجّ في معتقلٍ يضطهد شرفي قبل انسانيتي . . بسببٍ واحد هو أنني أداوي أناس، لا دخل لهم إلا أنهم كانوا ضحايا حرب بشعة اغتالت طيبة أيامهم .

كنت أعرف المصير القذر الذي سيواجهني، في حين كان الإعتقال هو نصيبي، لا أعرف لمَ تذكرتك حينها أيها الغالي، تمنيت لو أراك حينها، كان كل شئ مرّ معك يا غالي .

لكنك كنت كأسي الذي لا أستطيع أن أتجرع طعم الحياة إلا به،ثم اكتشفت أنك لم تكن سوى كأساً فارغاً، لم يساعدني على ابتلاع غصة الحياة .

قرأتُ بلحظةٍ كلّ الآيات القرآنية التي حفظت منذ الصغر، تمنيت من الله أن يكون الموت هو نصيبي . . دوى صوت الرصاص في القبو، وخُطى جندٍ ثقيلة، كلمات شتمٍ تعلو المكان . . كان قلبي يخفق بسرعة كبيرة، لدرجة أن كل الأجهزة الطبية تقف عاجزة أمام قياس ضرباته .

تجمّد الدم في عروقي لوهلة، وفجأة رأيتك أمامي، عاود دمي للغليان .

كنت ترتدي بذلتك العسكرية، شعرك أغبر مشعث، وبيدك بندقية .

تجمّدت مكاني، تخيّلتُ بأنّي سأكون سعيدة، لأن آخر ما سأراه هو وجهك .

ثم غيّرت رأيي لأنني سأكون الأتعس، لأني سأحمل ذكراك معي حتى إلى مقبرتي.

نظرت يومها إليّ و كأنك لا تعرفني،حتى أنا بالكاد عرفتك . أهذا هو غالي ؟

غالي الذي أمامي ليس غالي الذي ظلّ مزروعاً في قلبي كل ذاك الوقت،غالي هذا يمسك بندقية، غالي هذا قادر على القتل، ما الذي جرى حتى غيروك هكذا ؟

أنا أحملق بك مذهولة، وأنت تطلب من جميع المرضى و الأطباء، التنحي والوقوف جانباً، ثم تأمر جندك بالخروج .

قلت لي بلهجةٍ لا أكاد أعرفها :

- حبيبة، ارحلي من هنا . . الباب الخلفي لهذه المشفى ليس مراقباً، ارحلي بسرعة وأهربي قبل أن يعود جنودي .

نظرت إليك وكلّي صدمة، كانت روحي تشهق، روحي مشتاقة إليك كثيراً، وها هي اليوم تنتظر حتفها على يديك .

صمت أنت لحظة، ثم قلت لي بلهجة الأمر :-

- هيا تحركي من هنا ، كان الجميع ينظر إليّ، لمحت في نظراتهم شكوكاً وعتباً عليّ، لكني لم أتحرك .

تقدمتُ نحوك بخُطى ثابتة، أنزلتُ بيدي سلاحك الذي كنت تشهره في وجهنا .

قلت لك : إما أن أموت معهم، أو أن يحيون هم معي .

نظرت إليّ مستغرباً، قلت لك :-

- أتذكر يا صديقي أنني قلت لك يوماً ، أنّي لا أبيع مبادئي ولو كلفني الأمر حياتي .

أجبت بصرامة :-

- أنا لست صديقك، أخبرتك ألف مرة أننا لسنا أصدقاء .

كنت غاضباً جداً . . شعرت للمرة الأولى بالخوف وأنا معك، تخيلت بأنك بكبسة واحدة على الزناد ستقتلني أنا ومن معي .

لكنكَ قلت وقد امتزج غضبك بدموعٍ لا يراها غيري :-

- هيا اغربوا عن وجهي، دقيقتان فقط وكل من سأراه بعدها سأطيحه أرضاً .

ركض النسوة و الأطفال والرجال، يحملون أوجاعهم وجروحهم ويفرون بها .

شعرت حينها أنّي أحبك أكثر من أي وقت مضى، لكني لم أستطع أن أقول لك ولو نصف كلمة، ولم أعرف إلى اليوم، كيف بررت تصرفك هذا مع جنودك، لتقنعهم بأننا هربنا غصباً عنك .

أؤنب نفسي اليوم كثيراً، لأنّي لم أحتضنك يومها ،لا زلت إلى اليوم عطشى يسكنني الظمأ، وأحتاج قليلاً منك كي أرتوي .

أحياناً كنت أتمنى لو أنك قتلتني يومها ، كنت سأكون مرتاحة، كنت سأكون أنا الميتة، وأنت من يصارع مع الوجع،لكن للقدر حكايةٌ مختلفة .

كلانا اليوم ميت، لكنّى ميتة مع إيقاف التنفيذ ،كنت حقاً ميتة ولكن بين ضلوعي قلباً لا زال ينبض .

...

ويح الطفولة

لا أزال أحاول أن أكتب عبثاً، أحاول أن أخرج من عجزي،أن ألجأ إلى الطبيعة، علّها تغنيني عن حروفي الضائعة .

خرجت في نزهةٍ مع هنادي إلى حقولٍ واسعة جميلة، حقول رغم جمالها إلّا أنّها لا زالت عن روحي بعيدة .

سبحت الله كثيراً يومها، سبحته وحمدته كثيراً على نعمه التي لا تحصى، سجدت في مصلى قريبٍ من تلك الحقول، وقد امتلأت روحي حياة .

سألت الله وتوسلت كثيراً، تمنيت منه أن أنساك، كنت أتوق لزهايمر إن كان هو مهربي الوحيد منك .

في طريق عودتنا كانت هنادي تقود السيارة، فأنا لا أستطيع القيادة .

رأينا اطفالاً يلعبون معاً، يصرخون ويصفقون، كدنا أن ندهسهم لكنهم لم يبالوا، استمروا باللعب والضحك والتصفيق، كأنّ الموت لا يعنيهم، وخرافة الحياة تلك لا تمت إليهم بصلة، هكذا هم الأطفال دوماً، يتغلبون على الموت بالحياة .

ابتسمت أنا في حين تمتمت هنادي غاضبة، نظرت إليهم وتذكرت أسوأ يوم مرّ بعمري كله .

كان يوماً ربيعياً، يشعّ بالنقاء، إلى إن عكّر نقاءه زمجرة طائرة حربية .

ملأت الأفق أشلاء ودماء، وتحوّل اليوم من ربيع نقي إلى دموي قاتل .

لأوّلِ وهلةٍ عند دخولي المشفى المعتم شعرت بالانهيار، فأنا لم أرْ يومها انساناً كاملاً، كان كل ما حولي أشلاء، كاد أن يغمى عليّ .

هول المشهد صعقني، بالرغم من كل الخدع التي توصل إليها صانعي الخدع في الأفلام، إلّا أنّهم لم يستطيعوا أن يخلقوا مشهداً أكثر رعباً مما رأيت .

لكن صوتاً أيقظني :-

- أرجوك دكتورة، لا أطباء الآن إلا أنت .

لم أعرف من أين أبداً، ولا كيف أبدأ، كان كل من معي يعملون معي كممرضين، رغم أنهم لم يعملوا بهذه المهنة قبلاً، لكن الظروف دوماً تعلمنا، وتجبرنا على ما لا نحب.

بدأتُ بإخراج الشظايا، إعطاء المسكنات، تطهير وخياطة الجروح .

لم أعرف إلى اليوم كيف بدأت، وكيف أنهيت عملي، وإلى الآن لم أعرف إن كان عملي متقناً يومها أم لا ؟

وما ذنب تلك الطفلة الصغيرة، صاحبة أجمل عيون رأيتها، أن تدخل شظية وجهها فتشوهه، وأضطر أنا إلى خياطة جرحها، هل تسامحني الآن ؟؟

هل تعرف أنه لم يكن حينها بوسعي إجراء جرح تجميلي لها ؟

لا أدري ؟ لكني أتمنى أن تكون قد فهمت موقفي .

(هذا إن كانت لا تزال على قيد الحياة، بعد كل تلك المجازر التي حدثت) .

بعدما أنهيت خياطة الجرح في وجهها، وضمدته كانت تبكي، لكنها وبعد أن نظرت إلى وجهها في مرآةٍ على الحائط، بدأت تضحك ملء شدقها .

قالت لي أنظري أصبح عندي قناع، كانت تضحك من كل جوارحها .

ويح الطفولة يا غالي، ويح الطفولة، وهل طفولة كهذه تستحق مجازر، كالتي حدثت؟

على كلٍّ بالرغم من كل بشاعة ذاك اليوم ودمويته، إلّا أنّه يبقى أهون بمراتٍ كثيرة، من يوم قصف مدرسة القرية .

...

قصاصة ذاكرة - دمشق ١-٢-٢٠١٢

لم نرْ بعضنا منذ مدة طويلة،بدأت أنسى ملامحك تقريباً، وبدأت أكرهك، أكرهك بالقدر الذي كنت أحبك، ولا زلت أشتهيك بقدر تلك النشوة التي غمرتني، قبل أن ألقاك في ذلك اليوم الذي لم يكن .

أيها العالق بذاكرتي، كم صدأ عقلي بك، لا زلت تذكرني بيوم كنت طفلة، حينما علقت قطعة لبانٍ بشعري، اضطرت أمي إلى أن تقص شعري، حتى أتخلص من قطعة اللبان تلك .

وأنا اليوم بحاجةٍ إلى أن أتخلص من ذاكرتي كي أشفى منك،أريد أن أستأصلك مني ولا أستطيع، قررت أن أنساك، لكني نسيت بأنّه ليس لنا في الحب، أو النسيان قرار تماماً هي مثل اختيار والدينا، أمنا وأبينا،أخواتنا، عائلتنا، أوطاننا .

هي الأشياء التي لا نملك قراراً فيها، فسواء أكنت تحب وطنك أم لا، سواء أكان وطناً غنياً أم فقيراً، فأنت تحمل جنسيته منذ أن تر عيناك النور .

كذلك أيضاً عائلتك، تحمل اسمها دون أدنى حرية لك في اختيارها ، وكذلك أيضاً هو الحب والنسيان .

لذلك لم أستطع فعل شيء، كل ما فعلته كان محاولات،محاولات يائسة ليس إلّا .

قالت لي هنادي ذات مرة، طالما تريدين نسيانه لن تنسيه، الأشخاص الذين نحاول تجاهلهم ونسيانهم، هم في الحقيقة نحن، هم أبطال أحلام يقظتنا .

تلك اللحظات قبل الخلود إلى النوم تكون محجوزة لهم فقط، نفكر فيهم كيفما يحلو لنا ، نحاول أن نصنع مواقفاً تتناسب مع أمنياتنا ،أمنياتنا التي لم يفلح الواقع بتحقيقها .

لذلك كان عليّ تقبل حقيقة موجعة جديدة، وهي أنّه لا مفر لقلبي منك أبداً .

كما تقول كوكب الشرق أم كلثوم (أهرب من قلبي أروح على فين ؟)

لكن أم كلثوم كانت تكمل (ليالينا الحلوة في كل مكان) .

أين كانت ليالينا الحلوة يا غالي ؟وما حجم حضورها ذاكرتي أمام ليالي القصف الباردة البشعة ؟

...

هنادي

ولهنادي في روايتي فصل خاص، فهنادي هي الوحيدة التي لم تخذلني إلى اليوم، كل أولئك الذين أحببتهم خذلوني، وغادروا هذه الحياة الفانية واتجهوا إلى حياةٍ خالدة أخرى، تاركين لي حائطاً كبيراً، قد امتلأ بصورٍ توشّحت السواد .

أمي، وأبي، حتى أنت ومحمود، الكل غادر تاركاً حبيبة في الدنيا وحيدة متعبة، لا ملجأ لها سوى الورق والكتابة، وحدها هنادي لم تخن حضور الأجساد .

كانت حاضرة بروحها وجسدها دوماً معي، أما الباقي فقد غادروا هناك بعيداً، وتركوا لي جسداً تحت الثرى، وروحاً وذكرياتٍ لا تفارقني .

كانت هنادي هي الوحيدة التي أستطيع البوح لها بكل شيء، وحدها و الورق يفهماني، ولا يؤنباني لأنّي أحبك .

تعرف هنادي مقدار طيبتي لذلك تفهمني جيداً، وتعلم أنّ حبي لك ليس سوى نزعة جينية استقرت في دمي، ولا أستطيع التخلص منها إلّا بموتي. كانت تضمر لك كرهاً فظيعاً، تكرهك تماماً مثلما أحبك أنا .

لكن هنادي كانت تعلم جيداً، بأنّ حبي لك لم يؤثر على انسانيتي أو مبادئي .

أجل أحبك، وأحبك كثيراً، لكنّي لم أخنْ مبادئي، ولم أخنْ الوطن .

لا زلت أذكر يوم جاءتني برسالة منك، قالت لي :-

- والله كنت سأمزقها وأرميها في وجهه، لكنّي خفت أن تستائي مني، لذلك أحضرتها .

كنت لا أستطيع الخروج كثيراً، فاسمي أصبح مطلوباً لكلّ أفرع الدولة، فأنا طبيبة تعمل ضمن المشافي الميدانية، (إرهابية على قدرٍ عالٍ من الخباثة وكره الوطن) بنظركم .

أما هنادي فقد كانت أكثر مني حذرا، كانت تخاف كثيراً، لذلك حاولت قدر المستطاع الإبتعاد بروحها عن هذا النزاع .

نعتّها يوماً بأنها لا تحمل قضية، أجابت أخاف من قضيتي تلك، أن تحمل بي إلى السجن أو المقبرة .

كنت أتضايق منها، لكن أحياناً كنت أشعر أنها ربما كانت على حق. لكن هناك مواقف في الحياة، يجب أن تتخذ فيها موقفاً محدداً،ألا تكون مذبذباً .

لم تكن هنادي مذبذبة بطريقة رؤيتها للأمور،لكنها كانت تريد أن تنجو من هول الذي حدث .

كانت مؤمنة كل الإيمان، بأن كل ما يحدث ظلماً وعدواناً، لم تكن هنادي تقدم الأعذار والتبريرات لأفعالكم الشنيعة،لكنها كانت تحبّذ أن تأخذ موقفاً محايداً من كل الذي حدث .

كانت تحاول أن تساعدنا بكل الطرق، التي لا تجعل اسمها مطلوباً كما أصبح اسمي، كانت تخاف معتقلاتكم .

والشهادة لله أن ما كان يحدث في تلك الأماكن المجهولة شيء يستحق الخوف، بل والرعب حتى، فآثرت البقاء بعيداً عن الشبهات .

وطبيعة دراستها كصيدلانية، لا تجبرها على دخول الشبهات مثلي .

على كلٍّ هنادي أيضاً خسرت، خسرت دون أن تذنب بحق طرفٍ من الأطراف.

وكأنّما ما حدث في وطني، جعل كل شخص منّا يدفع ثمنه، حتى وإن حاول الفرار.

هنادي فتاة جميلة جداً، تشبه ياسمين الشام العتيق، بوجهٍ أبيض وعينان خضروان، بجسمٍ رشيقٍ متناسق .

وبالرغم من أن العيون السود هي الأكثر جاذبية بالنسبة إليّ، إلّا أنّ في عيونها بريق فرح، يجعل كل من يراه يعشقه .

هنادي وردة بيضاء حلوة، شقيقة نعمان، ليلكة فاتنة، بإختصار كانت هنادي جميلة جداً، تفوح روعة وعبيراً، لكن شظية أحرقت وجهها فشوهته .

وأصبحت هنادي ياسمينة مشوهة، كلما رأيتها تنظر لنفسها بالمرآة تخنقني العبرة .

من المفجع أن تتغير ملامح فتاة، من جميلة ساحرة إلى فتاة تغطي وجهها، خوفاً من أن يقرف الذي يرى تشوهه، هنادي لم تكنْ من ضمن سكان قريتنا، لكنها كانت تأتي بين الحين والآخر لتراني، وتطمئن عليّ .

فكنت أنا ممنوعة من الخروج، حتى لا يقبض عليّ، كلما جاءتني هنادي جئت أنت معها، ففي طول حديثها، لا توقف كلمات الشتم والكره لك، لعلّ أقل كلمة كانت تقولها (الله ياخده هو ويلي مثله) .

في المرة قبل الأخيرة التي جاءت بها إليّ، شعرتُ أنّ شيئاً ما فيها قد تغيّر .

أصبحت جميلة وفاتنة أكثر .

– هنادي؟ حاستي السادسة لا تخطئ، أظنك على قيد عشق يا صديقة .

– مممم لا .

– إذاً ؟؟

– هو على قيدي

– مَنْ ؟

– العشق .

لم أحاول أن أحاصرها بأسئلتي الفضولية كثيراً، فأعلم تماماً أن المحبين إذا ما أردوا البوح، انهالوا كنهرٍ جارف قد هدم سده، وإن لم يريدوا ذلك صمتوا، واكتفوا بأكذوبةٍ صغيرة، لا تتعدى كلمتين وهي (لاشىء) .

لكنّي كنت أعلم أن هنادي (هنودتي)، كما أحبّ أن أناديها دوماً، ستقص عليّ حكاية العشق التي هي على قيده، دون أن أسألها أكثر .

فنجان قهوة من دون سكر، وهدوء جميل وعاشقة خائبة الحظ، وأخرى تنتظر خيبتها . كنا أربعة معاً، أنا وهنادي(هنودتي)، والهدوء، وقهوتنا المرة .

كنا أربعة على قيد الإنتظار للمجهول، كانت قصة هنادي حلوة وساحرة .

فبطلها كان رجلاً بحق، دخل البيوت من الأبواب، لأنّ بنات الناس ليست لعبة .

تقدم لخطبتها بعد الصدفة الأولى، ومن دون أن يكلّف نفسه عناء إقناعها، تكفلت عيناه بذلك .

وإن كان سعيد لا يزال على حاله، فأظن أن نظرة واحدة من عينيه العسليتين، اللتين لم تنظرا يوماً لإمرأةٍ نظرة من تلك النظرات الخبيثة، التي تلاحق بها عيون الرجال أجساد النساء كافية لجعلها تحبه .

سعيد كان طالباً في كلية الهندسة المدنية، كان شاباً محترماً جداً، ويشهد الكل له بذلك. وحينما أحبّ لم يكلّف نفسه عناء ترتيب خطة، لإخبار حبيبته بذلك، بل تصرف كرجل وأرسل أهله إلى بيتها لخطبتها .

كانت هنادي كوردة زادها سعيد نضارة وشذاً وعبيراً،لكن الوردة تلك سحقت وشوهت قبل أن يستطع سعيد امتلاكها .

بعد خطوبتها بأسبوعٍ واحد فقط، وبينما كانت هنادي جالسة على شرفة منزلها، تكتب خواطرها كالعادة. فوجئتْ بصوتٍ قوي جداً، وبشظية أصابت وجهها، فأحرقته، وشوهته .

ولا زلت أشكر الله إلى اليوم، أنني لم أكن الطبيبة المداوية لهنادي وقتها .

أجل خسرتْ هنادي جمالها، رغم أن جمال (هنودتي) في عيني لا يموت .

لكن لنتحدث بواقعية، هنادي خسرت جمالها، ربما ذلك لا يساوي الكثير أمام الخسارات الأكبر، لكنه نسبياً خسارة كبيرة لفتاةٍ على قبيل الزواج .

بعد أن تشوه وجهها، قررت الانفصال عن سعيد، بالرغم من أنه حاول كثيراً، ترجّاها وأخبرها أنه يحب روحها، وليس وجهها لكنّها لم تقبل، ولم تسمح له حتى بأن يراها وهي بهذا الشكل. كانت تلك الواقعة هي المحور المفصلي في حياة هنادي .

فقد حزمتْ حقائبها وجاءت إليّ، لتعمل معي في المشفى الميداني، ونسفت بكل مخاوفها التي كانت عرض الحائط .

لربما نحن بنو البشر لا شيء، يغيّرنا كما الألم والحب، لا شيء يجعلنا نتخذ قرارات صارمة بحق أنفسنا، إلّا حينما ندرك بأنّ للحياة وجه آخر علينا أن نراه .

للحياة وجهان، وجه مشرق جميل، ووجه مشوه محترق،ولأن هنادي فقدتْ أولى الوجهين، جاءت إليّ لنكمل معاً بشاعة الحياة .

ومن هنا ابتدأت حياة جديدة لهنادي، وأصبحت أنا وهي دوماً معاً، كانت أقوى مني في بعض الحالات، كنا قد شكّلنا وقتها فريقاً طبياً رائعاً .

حاولتْ هنادي خلالها أن لا يرى أحد وجهها سواي، كانت تخاف أن يقرف الناس منها لبشاعة المنظر .

كنت أحاول أن أداويها ببعض الأعشاب البسيطة والأدوية، لكنني كنت أعلم أنه من المحال لحروقٍ كهذه أن تشفى .

وهنادي كانت صيدلانية أيضاً، وأمر كهذا لا يخفى علينا لكننا، كنا نمثل وبمهارةٍ كبيرة مسرحية الأمل .

كل شىء قد تغيّر في هنادي، ماعدا شىء واحد، كتابتها للخواطر .

لا يكتب المرء منّا، إلّا ليهرب من شىءٍ لا يستطيع بوحه سوى للورق .

كانت تكتب كثيراً، ولم يكن لدىّ جرأة لأطلب منها قراءة تلك الخواطر والمذكرات لي، لكنني في مرة سمحت لنفسي، وقرأت خلسة صفحة واحدة، ولم أستطعْ أن أكمل الباقى .

صفحة واحدة أظن أنّ هنادي، ستسامحني إذا ما كتبتها هنا ليقرأها الناس .

...

مذكرات هنادي

أعرف أنّ كلّ الرجال كاذبون، وأنهم مهما ادعوا أنهم يعشقون روح المرأة، إلا أنّ شكلها وجمالها هو الذي يكون الأكثر أهمية بالنسبة لهم. لذلك قررت التخلي عن سعيد قبل أن يتخلى هو عني، مهما كان سعيد يحبني، لكنه لو رأى جمالي الذي استحال قبحاً، كان سيتركني .

ولم يعد عندي اليوم قوة، لأتحمل عناء الوجع مرة ثانية،قد شوّه القصف وجهي، لكن قلبي لا زال جميلاً، ينبض بحب سعيد . لو بقيت معه لكان تركني وجرح قلبي وشوهه، يكفيني تشوه واحد .

الناس من حولي يحسبون، أنّي لا أشاهد نظرات الشفقة والقرف مني، لكني أشاهد وأدرك وأمثّل دور اللا منتبهة، حتى لا أبكي. لأنّي اكتشفت أخيراً، أنّ لا شيء في الدنيا يستحق أن نبكيه. لا شيء أبداً سوى ضميرنا، إذا ما مات وتركنا أشباح وهياكل انسان .

كنا امرأتان ما استطاعتا التغلب على وجع الحياة، فلجأتا إلى الكتابة .

مثلما يلجأ الرجل إلى امرأةٍ غريبة لينسى حبيبته، ومثلما تلجأ الأوطان إلى جلّادٍ جديدٍ، ليحميها من آخر .

لجأتُ وهنادي إلى الكتابة، لكن الأمر الجيد في وثيقة لجوئك للحروف، هو أنك تضمن حقوق السرية .

فأنت وحدك من تحدد أيّ الحروف والكلمات، هي التي ستظهر للعلن وتطبع .

وأيّ الكلمات التي ستبقى سراً خاصاً بك، لكن للحروف في بعض الأحيان خدع ذكية، تباغتنا بأنها قد اغتالتْ أسرارنا دون أن نعرف .

ربما لأننا ساعة الكتابة، نصغي إلى قلوبنا وليس إلى عقولنا ، ومن قال أنّ الكاتب يحتاج إلى عقلٍ راجح .

الكاتب لا يمكن إلّا يكون شخصاً مجنوناً ، أو شبه مجنون على الأقل .

عليه أن يحتوي في جعبته ذاكرة مؤلمة، وقلب قد كسر، لأنّ الكتابة هي دواء الذاكرة، وبلسم القلوب .

لكنّني اكتشفت مؤخراً، أنّ هناك أدوية تزيد آلمنا ، إذا ما كانت قد انتهت صلاحيتها ، وربما تؤدي بنا إلى الموت .

حروفي كانت خارج نطاق صلاحية الوطن، كيف لا تكون وهي لك أساساً، كانت خارج نطاق سيطرتي أنا .

أتمنى أنني أكون قد استطعت في النهاية، كبح جماحها وتصويبها نحو هدفٍ صحيح. فأنا أحتاج أيضاً أن أكسب الجولة ها هنا على صفحاتي .

أحتاج أن أصل ما حدث بطريقةٍ صحيحة، دون أن أكون بذلك قد ظلمت هول الأحداث، بعدم إعطائها حقها .

...

رسائل

(رسالتك)

فتحتُ رسالتك، ثمّ أغلقتها ،فتحتها وأغلقتها مليون ألف مرة،كنت أخاف، أخاف أن أقرأك فيها . كنت أخاف أن أراك، أخشى أن أرْ بندقيتك، أخاف أن أضعف أمام حضرة كلماتك، لكنني قررت أخيراً، أن أقرأها، وأقرأ إلى حبنا أنشودة السلام .

(من غالي إلى حبيبة . .

حبيبة كنتِ وستبقين دوماً، حبيبة لا أستطيع أن أنساها، ومرضٌ لا أستطيع أن أشفى منه. كم أتمنى أن أموت بحبك يا حبيبة، كل شيءٍ معك حلو حتى الموت، كل شيءٍ معك مُحال .

أعرف أنه لربما لن نلتقْ بعد اليوم معاً، وأعرف أنّ كل أحلامنا باتتْ ركاماً، كما الوطن، لكنكِ لا زلت هنا شامخة في قلبي، شامخة لا تسقطين .

كم أشتقتك يا غالية، أشتقت أن أشتم عبيرك، أشتقت أن أختلس نظراتي إليكِ سراً، أشتقت أن أملأ عيوني بكِ، كم أحبك أيتها الغريبة ؟

كيف ومتى أصبحت غريبة عني، لا أدري ؟

لكنكِ أصبحت غريبة بقرارٍ منكِ، ورغم ذلك لا أستطيع أن أنساك .

كيف استعمرت تلك الأفكار دماغك ؟؟ كيف تمردت على السلطة ؟

كدتُ أصعق يا حبيبة، كيف تعملين بمشفى كذاك ؟!

كيف تحضنين إرهاباً ؟ ألستِ من تتكلمين دوماً عن عشق الوطن ؟

أين مبادئك يا حبيبة؟منذ متى أصبحت عدواً لدولة تقيمين فيها ؟

كان من المفترض أن أقتل كل أولئك الذين وجدتهم في المشفى، لكني لا أستطيع قتلك، أنتِ دنيتي وهوائي ومائي،أنتِ حبي وعشقي، وأبجدية وجودي .

فكيف أقتل نفسي ؟! لا أستطيع يا حبيبة لا أستطيع .

حبّذا لو تعودين حبيبة كما كنت، حبّذا لو تسلّمين نفسك، حتى أسوي وضعك وأعفيك من العقوبة، بالقدر الذي أستطيع، لنعيش من جديد، ماذا لو تتركين هذا المكان الذي يعجّ بالموت والقتل ؟

فأنا حقاً محتاج لأراكِ ثانية، ولكن كحبيبة وليس كطبيبة، أشتقتك وسأشتاقك دوماً .

لن أنساكِ حتى وأنا على جبهات القتال،وسأظل أفكر فيكِ في كل ثانية تمر من عمري، عودي يا حبيبة، عودي حبيبة كما كنتِ .

فحبنا خلق للخلود وليس للزوال .

غالي ٦ آب ٢٠١٢)

...

تضحية

أخبرتني أمي يوماً، أنّه ليس هناك سقف للتضحية، فالتضحية إن أصبح لها حدود تخسر صفتها السامية. يهبط مستواها إذا ما حددنا لها حداً معيناً، كنت مخطئة ياأمي، لكلّ شيءٍ سقف لا يجب تخطّيه .

إن تخطّينا حدود التضحية، فإننا نصل لمستوى الغباء والإضطهاد. نضطهد أنفسنا، علينا أن نفرق بين الحبّ والتضحية، وبين الغباء والإستعباد .

لم يعد بمقدوري أن أضحي أكثر لأجلك يا غالي، لم تعد تروقني دموعي. وتلك الساعات الطوال التي أقضيها وأنا أفكر بك، لم أعدْ أهوى تلك الأعذار الوهمية، التي أبرر بها أفعالك .

أنتَ لا زلت تحبني، لأنّك تعلم أنّي لا زلت كما أنا، لهذا تحبني .

تعلم أنّي لا زلت أشعر، وتعلم أنّ إنسانيتي لم تمتْ داخلي، تعلم أنّي لم أقتلْ ولم أسفك دماءً ولم أغتصب .

وتيقن اليقين كله بأنّ الذي فعلته لم يكن إرهاباً، إلّا ضمن قاموسك أنت فقط .

لكن أنت، أنت يا معذبي، كيف أهواك ؟ كيف أهواك وقد غدوت جزاراً قاتلاً بهذه الطريقة البشعة .

وحدك من جعلتني أؤمن بأنّ الحبّ والغباء، وجهان لعملةٍ واحدة، وأنّ الإختيار في الحبّ لا يكون حقيقياً، ففي الحبّ ليس هناك خيارات، هناك أمور حتمية علينا تقبّلها كما هي، والتعايش معها. مهما أوصلتنا لمراحل من العذاب .

أنهيتُ قراءة رسالتك، ودخلت في غيبوبة أفكار .

كم تمنيت أن أبكي، لكني لم أستطعْ، شعرتُ بثقلِ الكون كله قابعٌ فوق قلبي .

فقدتُ القدرة على الإحساس، انفصلت عن الحياة. . .

أمسكت رسالتك وحضنتها بقوة، خبأتها بين ثيابي، حاولت أن أكتب لكن الحروف خانتني .

أخيراً جاءتْ هنادي، وأعطتني دواءً مهدئاً، أخذت قرص الدواء ونمت. نمت لكنّي لم أنمْ، نمت أنا لكنك كنت مستيقظاً داخلي. وحروفك تلك، كانت تقيم طقوساً ومراسماً في رأسي، أصابتني بالهذيان .

قررتُ أن لا أكتب لك رسالة على الفور، فأنا بحاجةٍ لأنْ أستجمع قوتي، وأن ألملم شتات نفسي، قبل أن أبدأ الكتابة .

مرّ شهر ولا زلت على حالي، أصارع الحياة وأحاول أن أستعيد قليلاً من حواسي.

أخيراً استطعت استرجاع قليلٍ منها، أما الباقي فقد تبخّر وتحوّل أمطار حيرة تهطل على أرض روحك. استجمعتُ قليلاً من نفسي، و بدأت الكتابة. .

من حبيبة إلى غالي

لماذا فعلت ذلك ياغالي ؟ لماذا كتبت لي؟ كيف تحبني وتهوى تعذيبي ؟

أرجوك دعكَ مني، نحن في زمنٍ لا يصلح للحب، هنا زمن الحرب يا سيدي، لا يصح أن نكون حبيبين، وعدوين في آنٍ واحد . ثمّ ماذا بعد كل هذا ؟؟

هل تتوقع من كل أجهزة المخابرات تلك، أن تصفح عنّي لمجرد أنني حبيبتك ؟

أفق من وهمك يا غالي، نحن اليوم في خطين متوازيين نمشي معاً، لكننا لا نلتقى .

أعلم تماماً أنّك تحبني، لكنّك لا تعلم أنّي أحبّك أكثر من روحي .

أصبحت وهمي وحبّي وحلمي، أصبحت صديقي وعدوي، أصبحت كل شىء، فكيف أنساك ؟؟

كم تمنيت لو أنّك قتلتني يومها، ثم كيف تقول بأنّني تخليت عن مبادئي بعشق الوطن؟؟

وهل يعد التمرد على سلطة ظالمة ظلماً للوطن؟؟

هل تعتبر أن مداواة جرحى القصف الهمجي يعد إرهاباً ؟

أنت الذي تخلّيت عن إنسانيتك، كيف تقول أنك كنت ستقتل أطفالاً ونساءً، كانوا موجودين في المشفى ؟؟

هل هذه وطنية ؟؟ سحقاً لوطنية كهذه .

إن كنا في رسائل بعدنا نتخاصم هكذا، فكيف لو التقينا ؟

دعني أكرهك، افعل أيّ شيءٍ لأكرهك وأعيش بسلام، أحتاج أن أنام بعمق .

أحتاج أن أضحك بعمق، وأن أتنفس بعمق، فمنذ أن سكنت أعماقي، بات كل شيءٍ سواكَ سطحياً بلا معنى .

انسى حبيبة يا غالي، انساني إلى الأبد .

ويوماً ما أعدكَ، بأنّ حبيبة ستنساكَ أيضاً، وأعدك أنّي في يومٍ سألفظ اسمك، دون أن تعم الفوضى داخلي .

حبيبة ٢٠ –أيلول– ٢٠١٢

أعطيتُ الرسالة لهنادي، و طلبت منها أن توصلها إليك، لكنّها رفضت وبشدة، ولولا توسلاتي الكثيرة لم تكن لتقبل .

كانت هنادي تخاف عليّ منك، فهي تعلم أنّ حبنا سيودي بأحدنا إلى الهلاك .

ولا زالت هنادي تشكر الله أنه لم يهلكني كما أهلكك، كنت أودّ أن أخبرها أنّ الموت يختلف عن الهلاك .

أنتَ مت، وأنا هلكت، كلانا قد هلك يا غالي .

...

غياب

كنت أفكر كيف كان صدى رسالتي تلك في نفسك، هل تألمت مثلي ؟

هل فقدت حواسك مثلي؟ لا أدري، أعتقد بأنّك قد أصبت بهيستريا جنون، بعد أن قرأتها، لأنّي طلبت فيها منك أن تنساني .

أعرفك جيداً وأعرف أنّ أكثر شيء يزعجك، هوأن أطلب منك نسياني. تماماً مثلما تزعجني أنا، فكرة أنني لن أستطع أن أنساك .

مضى كثيرٌ من الوقت، وانقطعت الدنيا فيما بيننا، أصبحنا لبعضنا مجرد ذكرى، أو حلم بعيد، ندرك تماماً أنّنا لن نلتقْ، ولو نصف يوم .

لذلك قررت أن أسلك كل السبل لنسيانك، بدأت بعملٍ تطوعي بإنشاء مدرسة، للأيتام الذين أفقدتهم الحرب أهلهم .

كنت أحاول جمع المال من أجل تمويل المدرسة، غير أنّ النّاس كانت متعبة جداً بسبب الحصار الخانق، متعبة لدرجة أنّها لا تستطيع توفير قوت يومها .

لكن حاشا لله أن ينسى عباده، لا زال قليلٌ من أهل الخير يملكون ما يفيض عن حاجتهم .

استطعت بعد جهدٍ كبير، أن أؤمن رغيف خبز لكلّ طفلٍ في المدرسة يومياً،

وتعاونتُ أنا ونساء القرية على تدريسهم واللعب معهم، لإدخال الفرح إلى قلوبهم الصغيرة، مساكين هؤلاء الأطفال، ما ذنب طفولتهم؟ ولماذا اختارتهم الحرب، ليدفعوا ثمناً باهظاً لشيءٍ لم يطلبوه ؟؟

كلما نظرت في عيني طفل، حُرم أن يقول كلمة (بابا) شعرت باليأس، كيف يتحمل كل هذا ؟

طفلٌ مثله ليس جباراً لتلك الدرجة، التي تجعله يحمل عبء كل هذه الأهوال .

ها أنا قد كبرت ولا يزال لغياب والدي فراغٌ، لا يملؤه أيّ أحد، فكيف هؤلاء الأطفال؟؟ كيف سيكملون دنيتهم من غير أب وأم يخافون عليهم ؟

أتدري، كلما نظرت في وجوههم أكرهك، أقسم أنّي أكرهك وبصدق. قد لا تكون أنت سبب يتمهم، لكن حتماً كان لك يد في ما حدث لهم .

صحيح أنّ كثيراً من الناس، يشاهدون معاناتنا كلّ يومٍ أمام شاشة التلفاز، أو عبر هواتفهم الذكية، وهم يتناولون وجبتهم المفضلة، أو طبقاً من الفاكهة، لكن هناك تفاصيل بسيطة، تفاصيل قاتلة لا تصلهم، لا يستطيعون مشاهدتها .

أجرّبَ أحدهم شعور أن يرفع يديه إلى الله مبتهلاً، طالباً منه أن يقبض روح طفله، لأنّه لم يعد بمقدوره رؤية ابنه، وهو ينازع الموت وجعاً، وليس باستطاعته فعل شيء ؟

أجرّبَ أحدهم شعور فتاة، تركل بطنها داخل المعتقل مائة ألف مرة في اليوم، لتجهض نفسها بعد عدة عمليات اغتصاب مقززة ؟

أجربتْ أمّ في كلّ الدنيا، أن تعد مائدة لأطفالها من حشائش الأرض؟ وهم يبكون من حولها ويتضورون جوعاً، لا أظن .

وهل هناك شخص في كلّ الدنيا، يتحمل أن يجلس في خيمة لا تقي برداً ولا حراً، ومن حوله عاصفة ثلجية تجمّد الدم في العروق ؟

أم أنّ هناك بطلاً يستطيع أن يتحمل عذاب الموت برداً ؟

وابحث لي في كل كتب التاريخ عن ألف وخمسمائة شخص، يموتون خنقاً في يومٍ واحد، طفل يلهث ويلفظ أنفاسه الأخيرة، طفل قبل أن يموت يقول، سأخبر الله بكل شيء .

ابحث وقل لي، هل وجدتَ شيئاً بهذه القساوة ؟

...

الحصار

في السنة السابعة لبعثة االرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، حاصر الكفار المسلمين في شعب أبو طالب، حتى اضطر المسلمون إلى أكل أوراق الشجر، حتى ربط أشرف الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم)، حجراً على بطنه من شدة الجوع .

لكن حينما حدث هذا كان القائمون بالحصار هم الكفار، كفار لا يعرفون الله، ويحاولون إخماد دعوة توحيده .

حينما كنت أقرأ عن حصار المسلمين في ذلك الوقت، كنت ألوم العرب، كيف سكتوا على هذا الأمر، الذي يعدّ أمراً مخالفاً لعادات العرب في الكرم والجود .

لكنّي أعود لأتذكر بأنّه في وقت كذاك، كان من المُحال أن تصل الأخبار بسرعة كبيرة، كانت ربما تحتاج أياماً أو شهوراً، أمّا اليوم فإن الأخبار تصل إلى كل العالم بكبسة زر. فيقف العالم ساكتاً متفرجاً على أطفالٍ تمت جوعاً، وعلى شيوخٍ تبرز عظامها، تكاد تخترق أجسادها بسبب سوءِ التغذية .

لا أستطيع إلى اليوم، أن أنسى أنا وكل أولئك، الذين جربوا وعاشوا فترة الحصار أن ينسوا فترة تصبح فيها اللقمة حلماً .

فترة يولد فيها أطفال ويموتون، دون أن يعرفوا شكل أو طعم الخبز ؟؟

وكلّ أولئك الذين يدعون الصبر، هل يستطيعون تحمل أن يعيشوا يوماً كاملاً، لا يتذوقون فيه سوى طبقاً من الشعير؟

نسيتُ أن أقول لكم، بأنّ الطعام كله قد نفذ، واضطررنا إلى أكل الحشائش، وطعام الدواب، فترة إلى الآن لا أعرف كيف تحملناها .

عدنا خلالها إلى القرون الحجرية، لا كهرباء، لا اتصالات، لا أدوية، ولا أي شيء يمت إلى الحياة الحديثة بصلة .

لا زلت أذكر كيف كانت أمي تمضغ رغيف الخبز القاسي، الذي يختلف تماماً عن ذلك الخبز الذي يتناوله باقي سكان العالم، خبز صنع من علف الحيوانات، والقليل من الدقيق المتوفر، دقيق قمح أو ذرة أو أيّ شيء .

المهم كان أن نأكل شيئاً، حتى لا نموت من الجوع، كنا نأكل ونحن راضين عن ذلك، شاكرين لله نعمه تلك .

يا الله، كم من النعم قد كنّا نعيش فيها، نعم الله كثيرة لا تحصى، ولولا أننا فقدنا بعضها، لما كنّا أحسسنا بقيمتها .

أنواع الطعام الكثيرة، الكهرباء بكلّ الذي تحمله بين نبضاتها، من رفاهية كبيرة لا يشعر بها إلّا من يفقدها .

فقدنا كل أنواع الآلآت والأدوات الكهربائية، من غسالة وتلفاز ومكواة، فقدنا النور الذي كان يضيء بيوتنا في سهرات الصيف الطويلة .

لا شيءٍ سوى شموع و فوانيس قديمة، حياة أخرى تختلف عن الحياة التي كنّا نعيش، لكن ذلك لم يكن مهمّاً لنا، أمام فقدان الدواء والطعام .

إن كان الواحد منّا لا يستطيع أن يأكل في اليوم، أكثر من رغيف شعير واحد فما بالك بطاقته، كيف سيمتلك طاقة تساعده على الركض في حال حدث قصف ما ؟

وكيف لأمّ أن تستطيع إرضاع ابنها الوليد، وهي أساساً لا تأكل ما يكفيها، فينضب صدرها، وينضب معها نبض الوليد .

وأيّ حليبٍ ذاك الذي كنا نستطيع تأمينه للرضّع، إن كانت الماشية تنفق لأننا كنّا نأكل طعامها ؟!!!

أطفال كثيرة كانت تموت ؛ بسبب عدم توفر الغذاء الصحي لها .

أطفال بريئة تموت جوعاً، وفي نفس الكوكب هذا، أناس تقف محتارة أمام (menu) ماذا تطلب ؟

حقاً يحدث هذان الأمرين على ذاتِ الكوكب .

كنت أقف عاجزة أمام الأطفال التي تموت جوعاً، لا دور لي هنا كطبيبة، كانوا يحتاجون طعاما، ولا طعام هنا .

أيستطيع أحد أن يتخيل شكل طفل، يوهن جسمه وينحل ويموت جوعاً، أمام نظر والديه، وهم لا يملكون كسرة خبز من أجل إحيائه. لم يكنْ الأطفال بهذه القوة، حتى يتحملوا هذا كله، لذا كانوا هم والشيوخ الضحية الأكبر لجريمة ذلك الحصار الخانق .

أما الفئة العمرية المتوسطة، فقد كانت أكثر تحملاً، هزلتْ أجسامنا وأصفرتْ وجوهنا، أصبحنا خيالات لأشكالنا الماضية، ولكننا بعد فترةٍ تعودنا قليلاً،

وأصبح طبق الشعير، هو الوحيد والمفضل لدينا .

كان قلبي يتقطع وأنا أرى أمي توهن ويهزل جسمها أمامي، وأنا لا أستطيع فعل شيء لها، طالما اعتبرت نفسي طبيبة ذكية، لكن ذكائي الطبي خانني مع أمي. كنت أحسب أنها توهن وتضعف من جراء سوء التغذية، لكنّه لم يكن كذلك وحسب، لقد كانت إلتهاب كبد حاد، إلتهاب كبد حاد يحتاج إلى الكثير الكثير من الدواء والمضادات الحيوية، ونحن في بلدٍ لا نستطيع فيه تأمين رغيف خبز ؟؟

رحماكَ يا الله بنا، رحماك .

...

أمّي

كنت أنهي دوامي الصباحي في المدرسة، ثمّ أعود إلى البيت لألقى أمّي .

أمّي الحبيبة التي أنستني الدنيا فضلها عليّ، لكنها ككلّ أمّ، مهما ابتعدت عنها أراها لا زالت تنتظرني .

أحبّ أمّي كثيراً، أحب طيبتها و جهلها بخبث هذه الحياة .

كان أكثر شيء تحبّه وتعيش على أمله، هو أنّني ابنتها (الدكتورة) . وفي كلّ اجتماع نسائيّ، أو زيارة لا تكفّ أن تفتخر بي، بأنّي ابنتها الدكتورة، ابنة أبو العز .

حقيقة لم أشعر بانتمائي الكبير لأمي، لكنّي لا أستطيع أن أعيش دون وجودها معي، كانت كالهواء في حياتي .

لا أنتبه لوجوده حولي، لكنّي لا أستطيع أن أعيش بدونه، أمي هي ملاكي، وحبي الذي سيبقى إلى الأبد، ولعلّ موت أمّي هو أكبر فاجعة حدثت لي منذ ولدت.

لا زلت إلى اليوم أسأل روحي:

"كيف تعيش من غير أمي ؟"

أمي التي ظلت تفتخر بي، حتى وهي على فراش الموت، خانتني عقاقيري، وسنوات دراستي كلها، خانتني كل الأجهزة الطبية .

لم أستطعْ فعل شيء لها، توفيت أمي نتيجة التهاب كبدٍ حاد، ولم نستطع توفير الدواء لها بسبب الحصار .

ماتت أمي، هكذا وبكل بساطة رحلت، رحلت وتركتني خلفها يتيمة حرب، يتيمة أب وأم وحبيب، يتيمة وطن .

دفنت أمي في مقبرة القرية، بالقرب من قبر والدي،كما كانت وصيته رحمه الله.

ودفنت روحي أنا ما بين والدي وبينك، ماتتْ أمي يا غالي. ماتتْ ومات كل شيءٍ جميلٍ في الحياة معها .

منذ وفاة أمي قررتُ أن أتغير، أن أنتشلك مني، أن أقتلع من كياني ذاك الشخص، الذي بسبب معتقداته ماتتْ أمي (وأناس كثر أيضاً)، بسبب عدم توفر الدواء .

أصبحت أكثر قوة، زادني ضعفي قوة، كلما فكرت بأنّك قاتلها، ازددتُ كرهاً لنفسي، تباً لقلبٍ لا أستطيع أن أحكمه .

أيامٌ كثيرةٌ مضت، لا نمت فيها أنا، ولا نام قلبي ولا نام ضميري،كان كل شيءٍ فيّ مستيقظاً يؤنبني، حتى أنت .

أخيراً قررت كطبيبة أن أشرّح ذاكرتي، أعيد ترتيبها. صففتُ كلّ المصائب التي حدثت بسببك، في أول خانة من خانات ذكرياتي .

أما أنت جعلتك في درج الذاكرة، ذاك الدرج الذي أغلقته بكل مفاتيح عقلي ووعيي، وبدأت تدريجياً أتنصّل منك .

كما بدأت أنت أيضاً تتنصل من غالي الذي أعرفه، وتنجرف نحو جمع مال كلانا يعلم أنه مال حرام .

كيف تغيرت هكذا ؟! وكيف أصبح جمع أموال وأثاث الناس مباحاً لك ؟

كيف أصبح كل شئ محلل لكم وحرامٌ علينا ؟ وفي أي شرعٍ تسلبون منّا حقنا في بيوتنا، وحقنا في أن نعيش ؟

كنت أحاول أن أكذّب ما سمعته عنك، منذ متى وأصبحت لصاً على قدرٍ من الأهمية ؟ منذ متى أصبحت لص وطن، لا أحد يجرؤ أن يقول له كلمة ؟

كان أول ما سرقته مني أحلامي، وآخر ما سرقته أحلام طفل صغير في بيت دافئ،

مذهولةٌ جداً بك، مذهولةٌ أنا، وأستطيع أن أؤكد لك بأنّني يومها بدأت أنساك .

...

يوم الرحيل الأخير

كنت في مرحلة من القناعة التامة، بأنّ التهاب الكبد قد استفحل في جسد أمي، وأنّ لا أدوية تستطيع شفاءها، كنت أنتظر معجزة تحضر الدواء إلينا، لكن زمن المعجزات ولى، أدوية بسيطة وخفيفة،مسكنات قليلة هو كلّ الذي أستطيع إعطاءه لأمي .

وأعرف تماماً أنّ تلك الأدوية ، تقف مذهولة خائبة داخل جسدها، الذي سيطر عليه المرض ووصل به إلى مراحل الذروة الأخيرة .

كنت أنظر إلى أمي بجسدها النحيل، الملقى على سريرها، وأنظر إلى وجهي في المرآة، وشريط ذكريات كبير يمرّ أمامي .

لحظات طفولتي الشقية، التي كانت أمي تلحقني بها،لتضربني بعد أن أكون قد قلبت لها الأواني في المطبخ رأساً على عقب .

محاولاتها دوماً في تسريح شعري، الذي كلما انتهت من تسريحه، فككت ضفائري، وأسدلته على كتفي راكضة ألحق أبي لأخرج معه إلى الحقول.

قطعة اللبان التي علقت بشعري، ولم تنفع كل حيلها لإخراجها من شعري، فاضطرتْ حينها إلى قصّ شعري، وأصبح شكلي حينها، كشكــل (صبيان الحارة)،

كما ظلت أمي الحبيبة تنعتني طوال تلك الفترة .

كلّ شيء كان يمرّ أمامي. فناجين القهوة وكؤوس عصير البرتقال، التي كانت تحضرهم إليّ وأنا ساهرة في غرفتي أدرس، أثناء امتحانات الثانوية العامة .

(ساندوتش الزعتر) وكأس الشاي الأخضر،الذي ظلّ طقساً يرافقني منذ طفولتي، إلى حين انقطع عنّا الطعام في فترة الحصار .

دعواتها الحلوة دوماً لي، (الله يحميكِ، الله يسعدك، الله يقويكِ) .

دعواتها كانت قصيرة ومختصرة،لكنها كانت رائعة جداً،ما أجمل أن يسعدنا الله.

كانت دوماً تمسك بيدي، عندما أعود من المشفى وتطلب مني أن أظل قوية .

كلّ شيء كان يمرّ أمامي . . أيعقل أنني أنتظر هنا موت أمي عاجزة ؟

أيعقل أنني سأصبح يتيمة أم وأب، وأنا لا زال في داخلي طفلة صغيرة تأبى أن تكبر، كنت أنظر إليها بعيونٍ باكية .

دموعي لم تكن فعلاً إرادياً، ساعتها كنت في حالة اللا شعور، دموعي كانت شلالاً لا يستطيع شيء إيقافه .

أبكي على خسارتي الجديدة، التي أعلم بأنّني سأخسرها قريباً،كنت أتذكر قول أمي (بعد الأم أحفر وطم)، آه يا أمي إن رحلت، فما هو الشيء الذي يستحق من بعدك أن أحيا لأجله ؟

أسبوع كامل وأنا أرى طيف الموت، يدور ويدور حول أمي دون أن يقربها، لكن لكل إنسان منّا أجل مسمى سيموت بعده .

الموت هو الحقيقة الوحيدة، التي نخاف نحن البشر الاعتراف بها، أو نعتبر أننا لن نمر بها .

على الرغم من أنّ كلّ الأشخاص، مهما كانت عقيدتهم وانتمائهم الفكري، يؤمنون بفكرة الموت، لكن لا يحبون أن يضعون أنفسهم في مرحلة من التخيّل، بأنّهم سيكونون هم الميتون في يومٍ ما .

جاء أجل أمي، وحانت اللحظة الأخيرة .

كانت أمي تنظر إلى السقف، وجسمها ينتفض وأنا على مقربةٍ من سريرها، لم أكن أبكي ساعتها، كنت أنظر إليها ووجع الدنيا وقهرها كله في قلبي، تموت أمي وأنا أعجز عن مداوتها، هي التي طالما اعتبرتني

(أفضل طبيبة في الكون)، أقف هنا وأخذلها، أنا لا أتحدث هنا عن صراعها مع الموت، فالموت حق لا يستطيع أحد إيقافه .

لكن كانت بضع أدوية، وبضع من الحقن ومضادات الإلتهاب ستحل المشكلة، لكني لم أستطعْ فعل هذا .

حضنتني هنادي وأخرجتني من الغرفة، حتى لا أرى أمي وهي تسلّم روحها لخالقها .

استجبت لهنادي، لم أقاوم، لم أبكْ، ولم أصرخ، جلست على كرسي في الصالة، يملأني الشرود، ما كل هذا الذي يحدث ؟وهل عليّ أن أتابع حياتي، وأنا قوية بعد كل ما حدث ؟

هل يجب أن أستوعب حجم وهول كل هذا، ماتت أمي في غرفتها على سريرها .

وأنا أجلس في الصالة صامتة، لم أعد أبكي، كنت أرتعش كلّي .

هنادي تمسك يداي، وتحاول إيقاف رعشتي تلك، لكنّها لم تتوقف، ارتعش وكل شيءٍ في روحي يرتعش معي .

جاءتْ نساء القرية إلى بيتنا، كيف اجتمعن، وكيف جئن لا أعلم ؟

كانوا يقلن لي (البقية بحياتك)، أيّ حياةٍ تلك ؟

النسوة هنا، ويبدو أنّ العزاء قد بدأ، وهم يطلبون كفناً، ويبحثون عن (أم محمد) مغسلة الأموات.

إذاً فما حدث كان حقيقة. . حقيقة وواقع عليّ تصديقهما، رحلتْ أمي إذاً، رحلتْ وعليّ أن أودعها الوداع الأخير، ذهبتْ هناك إلى أبو العز، لتقصّ له كل ما حدث بنا،رحلتْ وتركتني ها هنا وحيدة.

كانت هنادي ونساء القرية يحضّرن كل شيء، من أجل الدفن وأنا واقفة شاحبة أتأمل كل ذلك، وكأنّ الذي يحدث أمامي لا يعنيني .

كان ما يحدث أكبر من أن يستوعبه عقلي، كل شيءٍ متوقف، عقلي وروحي و قلبي، وحدها الرعشة فقط كانت تلازمني. نظري متسمّر هناك على باب الغرفة .

وها هن النساء يحملن أمي ويضعنها على أرض الصالة، من أجل غسلها وتكفينها قبل أن يشيعوها إلى المقبرة .

اقتربتُ من أمي، كانت شاحبة الوجه صفراء اللون، تحسستُ بيدي وجهها وعروق يديها، كانت يداها باردتين جداً .

كم عانيتِ يا أمي، كم عانيت .

أبعدوني عنها، وأنا استجبت لهم، لم أبدْ أىّ مقاومة، كنت كلعبةٍ بين أيديهم يحركوني كيفما يشاؤون .

ما أصعب لحظات الرحيل الأخير !

عندما يكون الإنسان وجهاً لوجهٍ مع الحقيقة التي يرفضها. وكم من القوة يتوجب علينا التحلّي بها، لنجتاز مثل تلك المواقف، كان لابد لي بعد أن أنهوا غسلها وتكفينها،أن أودعها وأطبع على جبينها قبلة الوداع الأخيرة.

كنت قبلاً أقبّل يديها كلما دخلت وكلما خرجت، أمّا يداها اليوم فهما مضمومتان إلى جسدها، ولا شيء أمامي سوى وجهها الطاهر البريئ. عليّ أن أودّع ذاك الوجه الذي أخذت منه معظم ملامح وجهي، اقتربت منها، وسقطت حينها الدمعة الأولى، لترتطم بخده، فينبت الألم في مقلتيّ، معلناً ميلاد جرح جديد .

قبّلتها قبلة واحدة، واحدة فقط، لم أستطعْ أن أقترب منها بمقدارٍ يفوق قبلة .

ودخلنا إلى الغرفة، ليأتي محمود وبعض رجال القرية وأقرباء أمي، من أجل أن يواروها الثرى في مقبرة القرية، بالقرب من قبر والدي رحمه الله .

في لحظة خروج أمي من المنزل انهرت أنا ، كان عليّ أن أكون قوية أمامها حتى في موتها . ألا يقولون أنّ الأموات يشعرون بما يحدث حولهم، لكنّهم لا يستطيعون الحركة أو الكلام، لذا كان عليّ أن أكون قوية أمامها ، حتى وهي جثة هامدة .

ما إن خرجتْ أمي حتى بدأتَ أشهق وبأعلى صوتي من شدة بكائي، بدأت أضرب رأسي بالحائط، والنساء من حولي يحاولن عبثاً تهدأتي و احتوائي .

لكن لا، ما حدث لم يكن سهلاً، لقد ماتتْ أمي ! أمي التي كانت دوماً سندي في الحياة، أمي التي قال فيها رسولنا الكريم،

(يا رسول الله من أحقّ النّاس بصحبتي، قال :- أمك، قال :- ثمّ مَنْ ؟ قال :- أمك، قال :- ثمّ مَنْ ؟ قال :- أمك، قال :- ثمّ مَنْ ؟ قال :- أبوك)

صدق رسول الله الكريم

الأم التي أوصى بها الرسول، ثلاث مرات في حديثه الشريف قد رحلتْ .

وأمااااه. . وأماااه. . وأمااااه .

...

تأنيب ضمير

أكثر ما كان يؤلمني هو خوفي، خوفي من لقاء ربي، أو ليس المرء يحشر مع مَنْ أحبّ؟ فهل عساي أحشر معك؟ حقيقة كنت أخجل من نفسي أمام ربي، أشعر بك كنقطة سوداء في صحيفتي .

وأنا إنسان كلّي أخطاء، ولاحاجة لي بمزيدٍ من الذنوب، آه يا غالي، آه، ثم هل لحروفي التي أكتبها معنى، إن كانت ليست سوى رسالة لك ؟

لا أعرف ما الذي تفكر به في صميمك، هل أنت مقتنع حقاً أنك مدافع ومخلص للوطن ؟ أم أنّ ذلك مجرد كذبة، تكذب بها على نفسك قبل أن تكذب على الناس .

وكم من الأدلة والبراهين تحتاج، لتيقن أن ما تفعله ليس سوى سفكاً لدماء الأبرياء. ألا تكفيك كل تلك الصور والفيديوهات، التي ملأتْ الشاشات و مواقع التواصل الاجتماعي ؟

علاك عن كلّ تلك الأمور، التي طالما نعتّها بأنّها مفبركة،ألا يصلك صوت الموت من بعيد، وأنت جالس على بُعد أميالٍ من بلد فرض عليه حصار خانق .

ألا يصلك أنين المرضى ؟ ألا تصلك أمنيات طفل بقطعة حلوى ؟ ألا تصلك

رائحة الموت الممزوج قهرًا ؟ وكيف تستطيع أن تشاهد كل أولئك الناس يموتون جوعًا ومرضًا، بسبب الحصار وأنت مقتنع كل القناعة، بأن ذلك أحياء للوطن .

وهل الموت يعد إحياءً للوطن ؟

ثمّ انظر إلى التراب تحت قدميك، إنه يتوسل إلينا، يرجونا، كفانا دماءً، قد شبعت أرضنا موتاً .

نحن اليوم بحاجة إلى الحياة أكثر من حاجتنا للموت، ثمّ في أيٍ شرع يصبح كل شيء مباحاً، القتل والقصف الاعتقال، الاغتصاب،الحصار .

اسألك بآخر ذرات الضمير التي لا تفارق انساناً، هل هذا حلال ؟

لا أتكلم عن كونه حلالاً وحراماً من ناحية الدين، بل من ناحية الإنسانية .

ألا ترى أن لغيرك حقاً بالحياة كما لك، مئات الأشخاص تموت يومياً، أشخاص تتقطع أوصالهم تحت أنقاض القصف، تشابيه لشدة ألمها لا يمكن أن تكتب .

يتقيأ القلم وجعاً رافضاً كتابتها .

أتعرف ما معني أن يضحك رجلاً ملىء شدقه، حينما يلمح يد طفله تحت الأنقاض ويصرخ: "لقد وجدت ابني، لقد وجدته" ليصعق بعد ذلك بأن تلك اليـــد ليست إلا أشلاء ابنه، وباقي جسده الصغير ما زال مردوماً تحت الأنقاض .

أتعرف ما معني أن يبكي رجل، وهو يحمل طفلاً قد خرجتْ أعضاءه كلها خارج بطنه. أن يركض وهو يبكي محاولاً إنقاذه، وبينما هو يركض مسرعاً، يلمّح شيئًا سقط أرضاً، ليرى أنّ الذي سقط لم يكن سوى (معدة) ذلك الطفل .

مشاهد يرفض القلم كتابتها، فهي والله مواقف أكبر وأكثر وجعاً من أن تصف. مشاهد تشاهد كل يوم على شاشات التلفزة، وكأنها وهم وسراب،وكأّنها لم تكن.

أين هي الأمة ؟ أين هم العرب ؟ أيحدث كل هذا ونكتفي بالمشاهدة فقط ؟ّ ! !

يبدو فعلاً أن ذلك الذي حدث (ضحكة سخرية موجعة)، أشخاص كثيرة تموت.

تدفن بحرقة ولوعة، وتكون مجرد أرقام تظهر على شاشات التلفزة، أرقام كثيرة أظنّها يوماً ستقنع علماء الرياضيات، بأّنه هناك شيء ما بعد اللا نهاية .

وشخص آخر لديه منصب مهم يموت، فتنكس كل الأعلام ويعلن الحداد، ويتصدر خبر موته كل شاشات التلفزة، ولا يتوقف الأعلام ثانية عن سرد تاريخ أمجاده .

أليس ظلماً ؟ أليس ظلماً أن يحدث هذا كله ؟

كنت جلاداً من جلادين الوطن يا غالي،وأنا كحمقاءٍ غبية، لا أستطيع التوقف عن حبك،أخاف أن يحاسبني الله بك، أخاف أن يحاسبني بك يا غالي .

وأستغفره دوماً، وأدعوه أن أنساك، فهو وحده قادر على إقتلاعك من كياني .

...

حنان

جاءت إليّ حنان راجية مني خدمة بسيطة كما قالت، لكنّها حبذت أن نكون على إنفراد .

انتظرت حنان خارجاً، حتى انتهيت من معاينة جميع المرضى، الذن جاؤوا إليّ لمداواتهم من بعض الأمراض البسيطة .

لم يكن قد سبق لي أن رأيت حنان، أو صادفتها قبلاً، بالرغم من أننا نعيش معاً في قرية صغيرة، بمجرد أن دخلنا إلى غرفتي .

سألتها ما هو ذاك الأمر الذي تريد أن تخبرني به على إنفراد . وكم تراه مهماً، حتى انتظرت وقتاً طويلاً من أجل أن نبقى وحدنا لتحدثني به .

بدأت حنان فجأة بالبكاء، انحنتْ تقبل يداي وقدمي .

أصبت بالصدمة، ما الذي يحدث لهذه المسكينة ؟

أمسكتها و طلبت منها أن تهدأ، ضممتها إلى صدري، حاولت أن أحتضن انهيارها، لكنّني لم أستطعْ .

كانت تبكي وتنتحب و أخيراً، وبعد مدة ليست بقليلة هدأت قليلاً .

قالت : أرجوكِ دكتورة حبيبة أحتاج إلى عملية إجهاض .

فتحت فمي و شهقت، لم يكن مظهرها يدل على أنّها بنت فجور أو غاوية .

أجبتها بصرامة : هذا محال وحرامٌ أيضاً، عليكِ أن تخافي ربك، ثمّ أين كان عقلك حينما فعلتِ ذاك الأمر الشنيع؟ ألم تفكري ساعتها بأن عواقب الأمر ستكون وخيمة، ثم أين وضعت اعتبار الله حينما قمت بتلك الفاحشة. على كلٍّ الإجهاضِ أمر حرام، أو أنا كطبيبة أعتذر عن مساعدتي لكِ. اذهبي لذلك الشاب الذي أغواك، وحاولا أن تصلا إلى حلٍ معاً، حتى وإن كان زواجاً مؤقتاً .

بدأت تضحك بهستريا أخافتني :عن أيّ واحدٍ منهم تقصدين؟ ؟

شككتُ لوهلةٍ بأنها مجنونة، بأنّ في عقلها خطب ما، وأنها تحتاج إلى طبيبٍ نفسيّ وليس إليّ ! !

لكنها أردفت وقد اختنقت بالدموع مرة أخرى: كانوا كُثر يا دكتورة، كانوا أربعة، إلى أيّ واحدٍ منهم أذهب ؟

لم أفهم قصدها قلت لها : كوني واضحة أكثر .

جلستْ يومها حنان هادئة جداً، تسمّر نظرها في الحائط وبدأت الكلام .

"أنا حنان طالبة في كلية الهندسة المعلوماتية، الأولى لعامين متتالين على دفعتي، حرمتني الحرب من جامعتي، لكنّي كنت مصممة على أن أكمل دراستي. أخذتُ إذناً بالخروج من هنا، كوني طالبة جامعية و لدي امتحانات، لكن أمي و أبي كانا خائفين جداً عليّ، وكانا معارضان لفكرة خروجي خوفاً عليّ .

لكنّي ألحّيت على الأمر كثيراً، ما كان بمقدوري أن أرى مستقبلي يضيع أمامي هكذا. كنت أحفظ كل الكتب والمحاضرات، والأسئلة حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، كنت أدرس وصوت المدافع تدكّ الأجواء من حولي .

كيف يمكن أن أتخلى عن أحلامي ومستقبلي، وأضيّع كل تعبي هكذا، لمجرد الخوف !!!!

استطعت أخيراً ان أقنع والدتي، بأنني سأخرج لأقدّم امتحاني وأعود على الفور، وأن ليس هناك مخاطرة في الموضوع .

وفعلاً خرجت و يا ليتني لم أفعل، كنت في طريقي أراجع دروسي بسرعة، وقلبي يخفق كعادته قبل امتحاني، وعند مخرج القرية أوقفونا من أجل التفتيش .

صراحة لم أنظرْ إليهم ساعتها، كان كلّ همّي أن أنهي مراجعة كلّ دروسي، قبل أن أصل إلى قاعة الإمتحان. فلا يمكنني أن أتخلى هذه السنة عن المركز الأول على دفعتي كالعادة .

لكنّي فجأة رأيت يداً تسحب مني أوراقي، وأخرى تقيّدني وتعصب عيني بعصابةٍ سوداء، لمَ ؟ كان قلبي يخفق ويخفق ويخفق .

كنت أعرف تماماً القصة التي ستحدث لي، ولم أستطع تخيّل تفاصيلها، فأغمي عليّ بمجرد أن عصبوا عيناي.

نعم أُعتقلت في ذنبٍ لا أعرفه، لم أفق من إغماءتي إلا في مكانٍ مجهولٍ موحش مظلم. غرفة صغيرة بجدران سوداء، وسرير حديدىّ من دون مرتبة تغطيه، وفجأة سمعت باب الغرفة يُفتح، وأًصوات ضحك عالية، أصوات مقرفة تتناقش في من هو الذي سيبدأ ؟ يبدأ بماذا ؟؟؟

طالما أنّي الوحيدة هنا، فمعنى ذلك أنني وللأسف أنا المقصودة، انتهك شرفي أربعة ذئاب أوغاد، أصاب بالغثيان كلما تذكرتهم، رائحة عرقهم، رائحة فمهم الكريهة، رائحة النتن، قلة الشرف، عروق أيديهم النابضة التي ثبتوني فيها أرضاً، كل شيءٍ يجعلني أتقيأ قرفاً، جروح جسمي وهم يثبتونني على ذلك السرير اللعين، كلماتهم القذرة، لعابهم المقرف الذي سال على جسدي.

لَمَ لَمْ أمت؟

الموت يكون أرحم للفتاة في هذه الأحوال، لكن نصيبي أن أعيش العذاب الأكبر .

بعدما انتهوا منّي على (حد قولهم)، أعطوني إبرة وخيطاً، لأخيّط ثيابي التي تمزقت، كنت أخيط ثيابي لأستر نفسي عندما أخرج .

لكن ما من شئ كان قادراً أن يخيط روحي التي تمزقت، وأيّ إبرة في الكون ستستطيع أن ترد إلىّ عذريتي التي أفقدوني إياها،أي خيط سيصل شرفي الذي قطعوه؟

وعدتُ، عدتُ دون أن أقدّم أي امتحان، لقد سقطت في امتحان الحياة. لم أجرؤ أن أقول لوالديّ ما حدث، فقد كانا ضد فكرة خروجي أساساً، وأحمد الله أنّ أمي لم تكن ساعة رجوعي إلى المنزل، ولم تلحظ ثيابي الممزقة، دخلتُ مسرعةً إلى الحمام، بدأتُ أغسل جسمي. أغسله وادعكه، أفرغت زجاجة الصابون كاملة، لكن نتنهم ظلّ عالقاً بي .

كيف أغسل بالصابون عاري ؟ ومنذ متى يغسل الماء والصابون عارنا ؟

على كلِّ عاري ليس بشئ أمام عار هذه الدنيا التي تشاهدنا دون اكتراث. ولو أنني أملك الجَرأة لكبرت، وقلت للناس ما الذي حدث، لكن مثل هذه القصص يجب أن تبقْ سرًا. لأنّ مواضيع الشرف، لا يمكن أن تّذاع هكذا ببساطةٍ للناس .

منذ أيام قليلة شعرت بشئٍ غريبٍ في أحشائي، وعلمت بطريقتي أنني حامل، حامل ؟!!!

أتدرين معنى ذلك يا دكتورة حبيبة، أتدرين معنى أن يعرف أهلي هذا؟ فتاةٌ تقية حامل بالحرام، حاملٌ بالزنا من شخصٍ مقرفٍ لا تعرفه. فتاة حملت بعدما اغتصبت، وحاولت أن تمثل أنها قوية، حتى لا يعلم أحد بقصتها حتى أمها وأبيها، فتلك قصة صعبة للغاية، والله صعبة .

فماذا تريدين مني أن أفعل ؟أن أترك هذا الجنين في أحشائي؟ أكرهه، أكره طفلي، وسأقتله إن لم أقتل نفسي، أحتاج أن أتخلص منه، أحتاج أن أنقذ سمعة أبي، أحتاج أن أنقذ سمعتي، أحتاج أن أتخلص من بقاياهم القذرة في رحمي.

كم كنت أحبّ أن أكون أمّاً، ولكن ليس بهذه الطريقة، أسمعتِ عن أم تكره طفلها ؟

أنا ".

أنهتْ حنان حديثها وصمتتْ، بينما بدأتُ أنا بالبكاء،كيف تسلبون شرف فتاة بهذه السهولة ؟ كيف لا تشعرون بالقرف، وأنتم تشاهدون فتاة قد كشفتْ عورتها و شرفها أمامكم؟

أيعقل أن تكون أنت أحد أولئك الأوغاد الذين اغتصبوا حنان ؟

أم أنك من الممكن أن تكون شاهدت ذاك من بعيدٍ دون اكتراث ؟

أصبحت بالنسبة إليّ أحد أولئك الجزارين، الذين التهموا شرف فتاة لا ذنب لها إلّا أنّها حلمتْ .

كيف يستطيع رجل (إن صحّ أن نسميه رجلاً)، فهو على الأغلب ذكر لا يمتلك من الرجل إلا تكويناً فيزيولوجياً واحداً يصنفه كرجل، وباقي الأمور تصنفه على أنه حيوان بشريّ، حيوان بشريّ ليس إلّا .

حاولت أن أقنعٍ حنان بأنّ الإجهاض حرام شرعاً، وأنّها عليها أن تواجه الأمر الواقع، حاولت كثيرا وقلت لها أنني سأساعدها في إخبار والديها بما حدث. وأنه علينا أن نراع حدود الله، فلا نقربها فما في أحشائها روح لا ذنب لها، ولا يجب أن نكون قاتلين نحن أيضاً .

لكنّها غضبتْ، صارتْ تصرخ مثل المجانين: وعندما يكبر هذا الطفل في بطني، ماذا سأقول للناس ؟ وعندما ألده من سيكون أباه ؟ أيعيش طوال حياته (ابن حرام) ؟؟ وهل تعتقدين أنّ كلام الناس سيرحمني، وابني الذي سألده على اسم من سيسجل ؟ وهل سيكون عندما يكبر مقبولاً بين الناس، أم سيتحول إلى شخصٍ منبوذ ؟ وماذا إن كان ما في رحمي أنثى ؟

هل تعرفين ما معنى أن تعيش فتاة في مجتمعٍ يعرف أنها (بنت حرام) . لا تحدثيني عن الحلال والحرام أرجوكِ، فجنيني هذا موته حلال أكثر من إبقائه حيّاً في أحشائي .

طلبتُ منها أن تهدأ، وقلت لها أنّني سأنفذ ما تريده، ولكن يلزمني بعض الوقت، من أجل تأمين الدواء والمعدات، لإجراء عملية الإجهاض .

وأعطيتها موعداً بعد أسبوعٍ لإجراء العملية،لكنّني حقيقة كنت أفكر في أمرٍ آخر .

كنت أريد أن أساعدها وأقف إلى جانبها، لكن من دون أن نقتل روحاً، لا علاقة لها ببشاعة كل ما حدث .

كنت أسأل نفسي ما كمية الغباء، التي تسكنني كيف أحبك وأكرهك معاً . كيف أحبك وأعلم أنك لن تكون لي يوماً .

لم يعد يعنيني من أنت بالنسبة لي، حبيب أم عدو أم صديق،كان يعنيني أن أفرغ قلبي لأشغله بغيرك، لكن كل الأشياء لا تستطيع،لا تستطيع محو اثرك من داخلي.

الحب أقوى من الوجع و الألم، كل مشاهد الوجع والألم لم تكن لتمحوكَ مني .

يا لسخافة مشاعرنا،كيف تعبث بنا وتعيد ترتيبنا كيفما شاءت ؟

وحده شعور الفقد والوجع، يكوي القلب ويزيد طين الحبّ بلّة كما يقولون .

لو بقيت قربك لما كنت أحببتك هكذا ربما،لكن لأنك غبت، أشتقتك .

لأنّي لم أعشْ اللحظات، التي كان من المفترض أن أعيشها معك، ربما لو بقينا معاً، ورأيتك كيف تتحول من إنسانٍ إلى مستذئب كما في فيلم (twilight) .

لكرهتك لأنني كنت سأراك أمامي، وأنت تتحول من غالي إلى رخيصٍ باع كل مبادئه وإنسانيته .

لكنّك كنت بعيد، وبعدك ذاك ثبّت صورة غالي الذي أحبّ في مخيّلتي، ولم يجعلني قادرة على رؤية غالي (المستذئب) الجديد .

...

محمود

محمود ابن حارتنا، أجمل شاب رأته عيني،فارس أحلام كل بنات القرية. شاب أشقر طويل، بعينين زرقاوين وشعر كستنائيّ لامع، شاب يمتلئ رجولة و نخوة، شاب يعرف الله جيداً ويخافه .

قرر منذ البداية أن يتخذ طريقه وينصر المظلوم، كان يعمل في مجالاتٍ شتّى .

كان رجل المهمّات الصعبة، فمحمود تارة تراه يوثّق ويصور المجازر التي تحدث، فأعهده أكثر الإعلاميين تفانياً، وهو يقف يصور مكان القصف، وهو يعلم أنّه من الممكن أن تنزل قذيفةأخرى في نفس المكان، لكنّه لا يُبالي لأنّه يعتبر أنه يوصل رسالة إلى العالم بالذي يحدث بنا .

مسكين هو محمود، لم يكن ليعرف أن كل تلك الصور ومقاطع الفيديو، لم تكن لتغير شيء،وأن جلّ ما استطاع فعله هو تصوير لحظات بشعة، تحولت إلى مجرد (بوستات)على مواقع التواصل الاجتماعي،أو هاشتاجات سخيفة .

وتارة أراه مساعدي كممرض، عندما يبلغ القصف ذروته وتملأ الدماء المشفى .

أراه غارقاً في الوجع، منتصباً دون أن تدمع عيناه، وهو يساعدني وينفذ ما أطلبه منه كطبيبة على أتم وجه يستطيع فعله .

وحينما يضطر إلى حمل السلاح، من أجل حماية قريتنا من اقتحام سيودي بحياة كل من فيها، أراه فارساً مغواراً، جندياً شجاعاً، وبطلاً شهماً .

وفي اللحظات العادية ألمحه رجلاً بسيطاً، كلّ همه في الدنيا أن يرسم إبتسامة على وجه طفلٍ يراه صدفة .

علمت مؤخراً أنّ محمود قرر الزواج، لكنّه لم يحظْ بفتاة تعجب أمه. كانت أمه تدور بيوت القرية تخطب لابنها وتتفاخر به، وحقيقة يحقّ لها ذلك فمحمود رجل بمعنى الكلمة .

كان تفكير أم محمود ساذجاً، كتفكير كل الأمهات اللواتي يبحثن عن شريكة لحياة أولادهن، مواصفات تعجيزية .

(بيضاء، زرقاء العينين، طويلة،شعرها أملس وطويل،خدودها حمراء)، وكأنما هنّ يبحثن عن لعبة (باربي)، وليس عن زوجة ! !

ذهبت إلى منزل محمود، طرقت الباب، فتحت والدته، سلمتُ عليها وطلبت منها أن أرى محمود .

تفاجأتْ أم محمود من طلبي، فمنذ متى تأتي فتاة من القرية، وتطلب أن ترْ شابًا ؟!

لكنّي تداركت الموقف،وأخبرتها أنّي بحاجةٍ له، ليساعدني في إصلاح بعض الأعطال الكهربائية في أجهزتي الطبية .

قالت لي بأنّ محمود ليس هنا حالياً، وبمجرد أن يأتي ستخبره أن يأتي إلى عيادتي، شكرت لها تعاونها، وعدت وأنا أدعو الله أن يكون محمود رجلاً بحق، كما أراه دوماً، وأن لا يخيّب أملي .

في المساء جاء محمود إلى بيتنا، طلبت منه أن يدخل غرفتي الصغيرة، التي جعلتها عيادة بسيطة .

قلت له أنّ بعض الأجهزة الطبية قد عطلت، لكنّي حقيقة كنت أريد أن أحكي له عن أجهزة تنفسي، التي عطلت عندما كلمتني حنان .

أخبرته القصة، قلت له القصة بكلّ تفاصيها الموجعة .

أخبرته ما حدث كما أخبرتني حنان، حرفاً حرفاً دون زيادةٍ أو نقصان، وطلبت منه أن يتصرف كرجلٍ ويتزوجها، لكن محمود لم يجبني .

أعدتُ عليه السؤال مرات كثيرة، لكنه ظل صامتاً، أيعقل أنّ محمود أيضاً سيخيّب ظنّي ؟

قلت له في النهاية : لا عليك، أنت لست مجبراً بأن تتزوج حنان، لكن محمود بدأ يبكي، يبكي بصوتٍ عالٍ، ودموعه تملأ وجهه وذقنه، يبكي كما تبكي النساء .

هذا هو قهر الرجال،لكم هو مؤلم قهر الرجال، حتى استعاذ منه رسولنا الكريم (اللهم أجرنا من قهر الرجال) .

لا أستطيع رؤية رجل كمحمود يبكي، كان يبكي بكلّ ما وهبه الله من دموع. لم أعرف كيف أتصرف، أحاول أن أقترب منه، أن أهدأ من روعه، لكنّي تسمّرت مكاني ولم أفعل أىّ شىء .

وقف محمود منتفضاً فجأة، قال لي منذ غد سأخطب حنان وزفافنا، سيكون الأسبوع المقبل.

رجل كمحمود يستحق الحبّ والاحترام،رجل يستحق أن تموت امرأة لأجله،رجل يستحق أن تكتب عنه رواية، فلماذا أنا كحمقاء أكتب عنك، ولا أكتب عن بطلٍ كمحمود ؟؟

ذهبتُ إلى منزل حنان، أخبرتها أنّ محمود سيتزوجها و(يستر عليها) كما يقولون، أجهشت المسكينة بالبكاء، لكنّها كانت مصرة على الإجهاض،كانت تتوسل لي .

تقول أنها تكره جنينها، أشعر بها ،أشعر وأحس بها عندما تتذكر يومها المشؤوم ذاك، أشعر بالقرف مثلها، بدأت أقرف من حبنا أيضاً .

لكن حنان في النهاية أذعنت لكلامي، وقبلتْ بالزواج حتى لا يفتضح أمرها (بالرغم من أنها لم تخطىء) . لكننا مجتمع عربي للأسف، وتبقى هذه الأمور صعبة الفهم والتقبل لدينا .

بعد أسبوعٍ تماماً، أقيمت حفلة صغيرة في منزل أم محمود، وزُفّت حنان إلى عريسها .

حينما أغلق باب الغرفة عليهما، بدأت حنان ترتجف، تجمعتْ في ذاكرتها تلك اللحظات السوداء، وبالرغم من أن محمود لم يقربها، صارتْ تصرخ وتتوسل إليه أن لا يؤذيها . شعر محمود حينها أنّ إنسحابه، سيكون هو الحل الأفضل من أن يحاول تهدأتها، لأنّ أيّ اقتراب منها سيكون محاولة انتحار لأحدٍ منهما .

طلب منها محمود أن تهدأ، وأخبرها أنّه سينام خارج الغرفة، وأنه لن يفكر أن يؤذيها .

- حنان أنا الآن زوجك وسندك، لا تخافي مني، لن أفعل أي شىء لا تحبينه اهدأي قليلاً، وأنا سأخرج .

كانت حياتهما أشبه بأخوة، محمود بدأ يحب حنان كثيراً، لكن حنان كانت تخاف منه أن يقربها، تخاف أن يلمسها .

مسكينة تلك الفتاة كيف سلبتم منها أحاسيسها، بدأ محمود يتودد لحنان كثيراً و يحاول أن ينسيها وجعها بكل الطرق، كان يشعّ أملاً، بينما كانت هي تختنق يأساً، كان يستطيع في بعض الأحيان أن يرسم إبتسامة على ثغرها اليائس، ولكن الذي حدث لحنان كان بشعاً جداً، بشاعته فاقتْ حلاوة محمود وطيبته وحسن معاملته، مرتْ شهور كثيرة، وجاء لحنان المخاض .

حملها محمود ولمسها للمرة الأولى منذ زواجهما ،جاء بها إلى العيادة عندي من أجل ولادتها، كانت تلك البائسة تبكي و تصرخ ألماً وقهراً .

كنت أعرف تماماً أنّها لم تكن تصرخ من شدة آلام المخاض، بالرغم من أن آلام الولادة، هي ثاني أقسى الآلام بعد ألم الموت حرقاً .

بالرغم من آلام الولادة، هي آلام خروج روح من روح، كانت تبكي نفسها، تبكي وجعها. وأظن أن آلامها الداخلية تفوق وجع الولادة، وحتى وجع الموت حرقاً .

وأنا أحاول تهدأتها، وأتمنى من الله أن لا تحتاج ولادة قيصرية، فلو احتاجت حنان إلى عملية، يتوجب عليها أن تعاني الكثير من الألم، بسبب عدم توفر الأدوية والمسكنات اللازمة .

تخدير موضعي ليس إلا، لا يخفف الألم إلا بنسبةٍ قليلة جداً،كان من الصعب عليّ أن أراها تتوجع وجعين، وجع الروح، ووجع الجسد أيضاً .

محمود يقف خارجاً هو وأهل حنان، وفي يد كل منهم مصحف يقرأ فيه على نية أن تتيسر ولادة حنان .

ماذا لو علم أهلها أنّ هذا الرجل الواقف أمامهم، يدعو لامرأة تربطه به وثيقة زواج، وهي الآن تلد طفلاً ليس من صلبه .

محمود كان رجلاً في زمن قلّ فيه الرجال، بعد حوالي ساعتين من الألم، وضعت حنان جنينها في عملية ولادة طبيعية .

بمجرد أن قطعت الحبل السري الذي يربط حنان وجنينها،أدركتُ أن هذا الطفل يحتاج إلى حاضنة إطفال .

وصحيح أنّي لم أكمل دراستي في الطب، لكن االفترة الماضية جعلت مني طبيبة ماهرة، تستطيع العمل في تخصصات شتّى، وتستطيع معاينة المريض بنظرة .

هذا الطفل كان سليماً تماماً، كان صبياً، وبالرغم من أنّ ملامح الأجنّة لا تكون واضحة في ساعة ولادتهم، إلا إنني رأيت فيه حنان .

كان يشبه أمه بطريقة غير طبيعية (سبحان الله)، لكنه كان بحاجة إلى حاضنة للأطفال من أجل تنفسه ، ولم تكن تلك الحاضنة غير متوافرة عندنا .

مات الصغير،مات الصغير بعد ولادته بخمس دقائق فقط .

حتى حنان لم تره، مات بين يدي وسلّم روحه البريئة إلى خالقها،لا أعرف إن كان يجب أن نفرح، أم نحزن لموته. كاد قلبي ينفطر وأنا أرى أمامي جنيناً، لم يبلغ عمره الساعة يحاول عبثاً التنفس فلا يستطيع ثم يموت. خرجت إلى الخارج وحنان شبه مغمى عليها من شدة الألم، أخبرتهم أنّ حالة حنان الصحية بخير، وأنها ستصحو خلال ساعة، ولكن الجنين قد مات .

وقف الكل مصدوماً، لكن تعابير وتقاسيم وجه محمود، تدل على أنه صاحب الصدمة الكبرى، أعطيته لمحمود وطلبت منه أن يذهب و يدفنه .

ذهب محمود منفذاً طلبي، وفي عينيه دمعة يحاول مكابراً كرجل أن لا يراها أحد .

استفاقتْ حنان من وجعها بعد حوالي الساعة، طلبت مني أن ترْ طفلها،لم أعرف ما أقول لها .

هناك مواقف لفرط صعوبتها، تغادرك قدرتك على النطق، تلعثمت كثيراً، حاولت أن أخبّىء دمعتي، لكن حنان كانت بارعة في قراءة لغة العيون. علمت حنان إجابتي دون أن أتكلم، بدأت تبكي و تضحك معاً،سمعت صوت تمزق قلبها يخرق حواسي،لكنها استعادت اتزانها، وقالت: سبحان رحمة ربي أبى أن يعيش طفلي مكروهاً منبوذاً في الدنيا، فأخذه إليه أخذاً جميلاً، علّه يكون شفيعي يوم القيامة، ويدخلني الجنة، فكفاني جحيم دنياي، لكني على ثقة بأنه سيطلب من الله أن يدخل

والده النار. سبحان الله الذي يداوينا دوماً بأقداره، فمهما كانت أقدرانا مؤلمة، تبقى هي الأفضل والأحسن لنا. اللهم إنّا عبادك مؤمنون، مؤمنون بالقضاء والقدر خيره و شره.

بعد ولادة حنان انقلبت حياتها رأساً على عقب، بدأتْ تعود تدريجياً إلى حياتها الطبيعية، عادت الحياة تتسلل إليها من جديد، لكن بحذر.

ويوماً بعد يوم وبفضل من الله أولاً ومحمود ثانياً، عادت حنان شعلة نشاط وحيوية من جديد، وصارت ومحمود أجمل ثنائي في كل القرية.

استطاع محمود بصبره ورجولته أن يجعل حنان تعود إلى طبيعتها، وبالرغم من كل الوجع الذي عاشاه هما الاثنان،استطاعا أن يعودا إلى الحياة من جديد.

نحن شعب لا يغلبنا القهر والموت، نحن شعب نحب ونعشق الحياة، حتى وإن كانت تلك الحياة قاسية جداً علينا.

...

لقاؤنا الأول

كان لقاؤنا الأول منذ سنين كثيرة، سنين توقفتُ عن عدّها وتدوين أيامها، لكنني أذكر بأنني كنت جميلة جداً يومها .

ثوبي الأسود الطويل، وحجابي الأبيض البسيط، وتلك الساعة التي كانت تقيد معصمي .

أنا التي ما أعتدت أن تقيدني الأوقات، لكن لحظة لقاؤنا الأول، كان لابد لها من أن تُقيد بتاريخ، فهي في النهاية قد فشلت أن تقيدني بخاتم، بل جعلت كل منّا على قيد شيءٍ غير مألوف، أصبحت أنت على قيد ذاكرتي .

وكنت أنا على قيد انتظار لشيءٍ قد مرّ ورحل، ولم ألحظْ إلى اليوم أنه رحل، ولا أريد أن ألحظ .

أقف هنا أشيح بعيني، عن كل الأمور التي لا أحب رؤيتها، وأحاول أن أنظر إلي الحياة من خلال كرة سحرية، تخفي عليّ ما أكره، وتُبدي لي ما أحب .

على الرغم من أن الحياة، لم تكن يوماً مشهداً يُرى من خلال كرة سحرية،

إلا أنني أستطعت أن أعيش دور الغباء والتغاضي هذا وأكمله .

كنت أجهز نفسي بسرعة، أحاول تعديل حجابي، وأقف أمام المرآة أطيل نظري في فستاني الطويل .

وكأنّ لحواسي علم مسبق بأنّنا سنلتقى، نظرت إلى الساعة في يدي، يبدو أنني سأتأخر عن الموعد .

نزلت السلم مسرعة جداً، في طريقي إلى حفلة عيد ميلاد صديقتي في الكلية، خرجت من باب العمارة مسرعة، ومن شدة سرعتي وقعت أرضاً والتوى كاحلي،كان ذلك السقوط مؤلماً جداً، فلم أعد قادرة على الوقوف .

يبدو أنّ استعجال الأشياء يخربها، مشطت الشارع بعيني، وأنا كلّي أمل أن ألمح أحد أعرفه، ليساعدني في النهوض .

كنت أشعر بالحرج من هذا الموقف المخزي، لأي فتاة قد تمرّ به في يوم، ومن أمام محل الورود في عمارتنا، رأيتك خارجاً وكلك سحر وجمال .

الحقيقة تمنيتُ ساعتها أن لا يراني رجل مثلك، وأنا في مثل هذا الموقف الذي لا أُحسد عليه، ركضت أنت نحوي، حاولت أن تمسك يدي لأنهض، لكنني لم أستطع، كنت أشعر بالتخدير يسري في قدمي .

حملتني على ذراعك، وأنا أصرخ ألماً، وأطلب منك أن تتركني،وضعتني في المقعد الخلفي لسيارتك، وانطلقت بي إلى أقرب مشفى. كانت لهفتك واضحة عليّ، رغم أنك لا تعرفني .

اقتربت مني، وقلت بصوتك الرخيم :-

- ألف سلامة عليكِ يا آنستي. لا تقلقي أنتِ بخير، رض بسيط في كاحلك لا غير.

هززتُ رأسي شاكرة، طلبت مني أن توصلني إلى البيت، حتى لا أستقل سيارة أجرة و أنا في هذه الحالة، لا أعلم كيف قبلت عرضك يومها .

بالرغم من أنني طوال حياتي، لم أكلم شاباً غريباً عني، حتى وإن كان زميلاً معي في الكلية،لكنك كنت استثنائي، كنت استثنائي الذي جعلني أعيش حياة استثنائية لا أحسد عليها .

ركبت معك وأوصلتني إلى باب العمارة، التي استأجرت منزلاً فيها أنا وهنادي لإكمال دراستنا في العاصمة .

فهنادي طالبة في كلية الصيدلة، وكلياتنا قريبتان جداً من بعضهما .

في مساءِ ذاك اليوم، جاءت هنادي تسألني عن حفلة عيد الميلاد، التي كان من المفترض أن أحضرها .

فأخبرتها بما حدث معي، وبدأت أكلمها عن رجولتك، عن رائحة عطرك وشعرك المنسق، عن ذقنك الخفيفة التي زادتك فتنة، عن قميصك الكحلي الذي زادك هيبة،كيف حملتني، وكيف أخذتني إلى المشفى .

كيف كنت رجلاً بكلّ تصرفاتك معي.

عطرك dunhill الذي لم أكن أحبه يوماً، إلا لأنه عطرك .

بدأت هنادي تضحك بطريقة استفزتني :-

- جيد جداً، سوف يعشقك كما في الأفلام الهندية،وما هو اسم بطلنا يا حبيبة ؟ شاروخان أم سلمان خان ؟

لا أحبّ الأفلام الهندية، فهي تكون عكساً للواقع، لكن فكرة أن أعيش معك قصة حب هندية راقت لي، راقت لي كثيراً .

في صباح اليوم التالي، استيقظت على قرع جرس الباب. لم نعتد أنا أوهنادي، أن يطرق باب بيتنا أحد. فأهلي وأهلها ليسوا هنا، وعدد صداقتنا محدود جداً، فمن عساه يكون الطارق ؟

شعرتُ بتوجسٍ و خيفة، فتحت الباب بحذر، وجدت أمام الباب باقة ورد أحمر كبيرة، وقد كُتب عليها :-

الحمد لله على السلامة آنستي .

كانت فرصة سعيدة جداً

غالي. . . .

عرفت فوراً أنّها منك، وعلمت أنّ اسمك هو غالي، خجلت أن أسألك في المشفى عن اسمك، أو ربما نسيت، كنت مفتونة بك .

يا إلهي كم تشبه اسمك، لكل ابن آدم من اسمه نصيب، وأنت جداً غالي، يا غالي.

...

تعوّد

دون أن أدري،وبقوةٍ خفية أرغمت على حبك، تعودت عليك كثيراً .

أصبحت أول من أفكر به عندما أصحو، وآخر من أفكر به قبل أن أنام، أدمنتك.

أصبحت مدمنة عليك، وكلّ مشاغلي وقفت عاجزة أمام حضورك ذاكرتي، كنت أنتظرك كل ليلة أن تهاتفني بشغفِ فتاة، تنتظر أمها أن تحكي لها قصة ليلى و الذئب .

كنت أنا كليلى تماماً، متشوقة جداً إلى المجهول، أمشي في طريق حبك لأجمع زهور حبنا ،وأعرف أنّ ذئب الأيام سيأكل فرحتي .

أعرف أنّ فرحتي لن تدوم، لأنّه من المسلمات في هذه الحياة، أنّ السعادة لا تدوم لأحد، وأنّها تكون مجرد فترة قصيرة في عمر الواحد منّا .

لم أكنْ لأبالي أن السعادة قد سرقت مني، لكن الذي كان يؤلمني هو أنّ الوجع هو قد صار رفيق دربي .

كنت أتمنى أن أعيش حياة عادية مثل بقيّة الناس، لكن حملي في الحياة كان حملاً ثقيلاً أرهقني. (اللهم لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به)، لكنني أتذكر قوله تعالى :-

بسم الله الرحمن الرحيم (لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها) صدق الله العظيم .

كم كنت قوية إذاً، وحده الله كان يعلم مقدار قوتي وتحملي، حتى أكرمني بكل تلك الأوجاع التي طهّرت روحي، لا شيء يطهّر روحنا مثل الألم .

وبالرغم من أننا في ساعة الألم نصل إلى ذروة اليأس، إلا إننا فيما بعد ندرك ونستوعب الحكمة من ذاك الذي حدث بنا .

فنجد أنفسنا وقد تغيرت،أصبحنا أشخاصاً آخرين، أكثر قدرة على التحمل، أشخاص أقوى وأكثر صلابة ومتانة، تماماً مثلما يصهر الحديد ليغدو فولاذاً قوياً قاسياً، نحن نصهر ونكوى بنارالعذاب، لكن ليس لنذوب إنّما لنكون أكثر قوة .

ووجعنا ذلك يصبح نعمة وليس نقمة، كل شئ في حياتنا يحدث لنا لسببٍ معين، تقتديه الحكمة الإلهية .

وإن لم ندركْ هذا السبب في البدايات سنفهمه في النهايات .

وإن كانت الدنيا أقصر، من إن تعلّمنا ما هي الحكمة في ذلك، فإن لنا في الآخرة لقاء لا أحد يكذبه .

هناك سندرك الحكمة من كل الذي يحدث، كنت مؤمنة كل الإيمان بأنّ الله تعالى، لا يظلم أحداً وأن كل ما يحدث يحدث لسبب .

لذلك وجدتُ نفسي في النهاية متأقلمة على كل شئ، كنت أتمنى فقط أن يمدّني الله بالقوة، حتى أستطيع متابعة السير في مشوار حياتي الشائك .

بالرغم من أنّ بداية مشواري كان مزهراً، إلا أنها بدأت تفقد ربيعها شيئاً فشيء، حتى استحالت حياتي إلى شيءٍ أخر تماماً، لا يشبه ألوان الربيع التي كانت مرسومة في داخل تجاويف روحي .

بحكم دراستك في كلية الحقوق، كانت جامعاتنا بعيدتان عن بعضهما بعض الشئ، كنت تحتاج إلى ركوب سيارتك، حتى تأتي من كليتك إلى كليتي .

لكنّي كنت كل يوم أراك تنتظرني عند باب الكلية،عشت معك عمراً كاملاً يا غالي.

لم أدرْ قبلاً أنني قبلك لم أعش .

عشت حياة لم يكن بوسع كل كلمات ومعاجم الدنيا أن تصفها، مثلما يعجز القلم عن وصف الألم، كذلك يعجز هو عن وصف السعادة .

كل ما يستطيع القلم فعله هو أن يرتب أفكاراًعشوائية تسبح في فضاء أرواحنا .

إلّا أنّه لا يستطيع أن يصف الشعور الذي نشعر به .

ولعلّ أغبى سؤال واجهني خلال فترات دراستي كلها، هو (ماهو شعور الشاعر في البيت كذا ؟)

لا أحد يشعر بأحد، حتى القلم مهما كان مخلصاً لصاحبه، إلا أنّه لا يستطيع أن يحس، الأحاسيس كما البصمات، حكراً على أصحابها فقط .

بالرغم من انشغالي بك، إلا أنني لم أنسْ دراستي،كنت دوماً الأولى على دفعتي.

تلقيت أكثر من خطاب ثناء من عميد الكلية، كنت أشعر بالفخر كثيراً، وأنا أرى نفسي في المرتبة الأولى دراسياً، فخورة كنت بنفسي، لكني لم أكن مغرورة .

كنت أعرف تماماً الخيط الرفيع الذي يفصل بين الفخر وبين الغرور، بين الغيرة وبين الشك، بين الثقة وبين الغباء .

لكنني لم أستطع تمييز ذلك الخيط الذي يفصل بين الحبّ والكره .

مضت أيامنا تلك كحلمٍ شارد من غفوة الزمن، هرب حلمنا لأعيش فرحي، حينما كانت الدنيا لا تزال عني مشغولة .

أشبعتني دنيتي حباً وفرحاً وسعادة،قبل أن ترميني عمراً آخر في زنزانة الذكرى.

كنت سجّاني، كنت من يحرمني الحياة، مفتاح زنزانتي كان بيدي، لكن حبّك أصاب يدي بالشلل، فلم أعد قادرة على الخروج من زنزانتك .

استمر الحلم بنا مدة طويلة، انفصلنا فيها عن الدنيا، أصبح لي ولك دنيا خاصة بنا، دنيا قلوب لم تطأها قبلنا فرحة .

لكن الحياة تأبى أن تهبنا السعادة دفعة واحدة، لذلك جاء ما يعكر صفاء حبنا و يفرقنا إلى الأبد، افترقنا وما عادت قصتنا تلك سوى ذكرى، تارة أراها بلسماً، وتارات أخرى علقماً .

...

خلاف

لم أكن مهتمة بالسياسة، ولم يكن لنشرات الأخبار وقت في أجندة يومي،كان يومي ممتلئاً بك وبدراستي، لكن ما حدث بدأ يجذبني، لأن أتابعها كل يوم .

كنت أتضايق مما يحدث، كنت أشعر أنّ هناك شيئاً ما لا إنساني يحدث .

لكنّي قلت أنّ العالم مليئ بالكثير من الإضطرابات السياسية والإجتماعية، وأن ما يحدث سيمرّ، و تعود وتيرة الحياة إلى طبيعتها .

وظننتُ خطأً مني أنّها فترة وجيزة وستمرّ، لكننا مررنا بكلّ أصناف الوجع قبل أن تمر، لا أحد في كل الدنيا يعرف حجم ما مررنا به في هذه الفترة .

كانت تلك الأوجاع حكراً على شعبٍ بأكمله،شعب ما أقام يوماً على أرضه خياماً، سوى للبدو الرحّل .

شعب أصبح موزعاً في خيامٍ تملأ أرجاء (بلاد العرب)، ولعلّ أكثر أنشودة تثير ضحكي وسخريتي (بلاد العرب أوطاني)، كلا بلاد العرب ليست أوطاني، ليست أوطاني، يبدو أننا اقتسمنا الأوطان، ورضينا بالتجزئة التي جزأنا إياها المستعمر في

ذات خيبة، فخيباتنا كوطنٍ عربي باتتْ كبيرة وكثيرة أيضاً، لم أعطْ اهتماماً لاختلافاتنا في البداية، كان كل ما يعنيني هو أنت، أنت فقط .

لا أريد أن أتخيل حياتي لحظة بدونك، قد لونت حياتي، قبل أن تمسح عالم الألوان داخلي بفراقك .

بدأت قضية وطني بسيطة، ثم أصبحت قضية عالم بأكمله. اختلفت حولها الآراء، وتشدّق المحللون السياسيون بها على منابرهم،واختلف أبناء شعب واحد عليها، حتى أنا وأنت .

كنت كل ما سألتك لمَ يحدث كل هذا ؟ تبرر بأنّ ما يحدث ليس سوى دفاع عن السيادة .

وهل يسحق الشعب من أجل الدفاع عن السيادة ؟؟

ماذا لو قدمت السيادة تلك عربون صداقة لشعبٍ طيب بسيط ؟

ما كان ليحدث كل هذا .

اضطررت خلال تلك الفترة، أن أترك جامعتي وأجه إلى قريتي، حتى أداوي ضحايا القصف الهستيري هناك .

أما أنت وبحكم أنك أكبر مني، كنت قد تخرجت منذ زمنٍ وتطوعت في الجيش .

وبدأت العمل كضابط متطوع على قدر كبير من الأهمية، وهكذا افترقنا .

افترقت حبيبة وغاليها، اتخذ كل منّا طريقه، اخترت أنت الطريق الأسهل، ساندت الأقوى، ومثّلت على نفسك مسرحية الوطن .

وزرعت في عقلك أفكاراً غبية، بأنّ كل تلك الجرائم تحدث من أجل الوطن،

أما أنا فقد كنت اخترت طريقاً صعباً، اخترت أن أكون مع أناس لا يملكون شيئاً، سوى أحلامهم وبضع هتافات خرجوا، لينطقوا بها فانهال الرصاص عليهم وسالت دماءهم أنهارا، تروي جنة الوطن .

افترقنا وبات محال أن نلتق من جديد، أصبحنا خصمين، عدوين .

لكن الحبّ داخلنا لم يمتْ، أصبح لكلٍ منّا أولويات تختلف عن الآخر .

باتتْ السلطة و المال من أهم ما تدافع عنه أنت، بينما وقفت أنا مع شعبٍ مظلوم،

شعب طيب وبسيط تحول، وبمحض إنعطاف تاريخي إلى لعبةٍ في أيدي القوى الكبرى، ليلعبوا به ويصبح مجرد تجارة إعلامية رابحة .

قلت لي يوماً :-

- إن كانت لا تعجبك مبادئي، فليس أمراً مهمّاً، لكن لا تقفي في وجهي، لا تكوني خصماً من خصومي .

أجبتك :-

- لكن خصومك أولئك على حق، والساكت عن الحق شيطان أخرس

قلت :-

- كلنا في داخله شيطان، سواء أكنّا شيطان أخرس أم متكلم ما الفرق ؟؟ كفاك إرتداءً لثوب الملائكة، انج بروحك من هذا الصراع، كوني امرأة يا حبيبة، تتبعي آخر صيحات الموضة، وأحدث الأغاني و تصفيفات الشعر، تعلّمي كيف ترقصين وكيف تتدلعين. كوني امرأة و كفاكِ لعباً لدور البطولة

ذهلت بك، صدمتني جرأتك تلك في الحديث، كيف تحدثني بتلك الطريقة واللهجة القاسية، هل أنت حقاً غالي ؟ّ!!!

انسحبت بهدوءٍ دون أن أقول ولو نصف كلمة .

التفتُ إليك أخيراً، وقلت لك حكمة لا زالت إلى اليوم عنواني في الحياة

(حينما سكت أهل الحق عن الباطل، توهم أهل الباطل أنّهم على حق)

ثم مضيت، مضيت وتركتك أنت خلفي، لم أنظر إليك ثانية .

ما عاد يعنيني أن أدير وجهي لأراك، كنت دوماً نصب قلبي وأعيني، وأراك اليوم لا شئ .

...

قصاصة ذاكرة

لا أعرف ما الذي يجب عليّ فعله ؟

هل يجب علي أن أساعدك على الهرب؟ هل يجب أن أنقذ حياتك، كما أنقذت حياتي أنت قبلاً، لكنك حين أنقذت حياتي لم أكن قاتلة .

أما أنت اليوم فقاتل خطير، قتلت أحلاماً وبشراً وأيام .

كان اقتحام لقريةٍ مجاورة، ذُبح فيها معظم أطفالها، لكن لسوء حظي وحظك، استطاع محمود وبطريقة لا أعرفها أسر بعض الجنود، كنت أنت من بينهم .

لماذا حدث هذا يا غالي ؟ لماذا ؟

ولماذا تختارني الدنيا أنا دوماً، لأصعب امتحاناتها .

كان محمود يدري بطريقةٍ أو بأخرى، أنّ علاقة ما تربطني بك، كان مديناً لي بجنان، لذلك أخبرني بقصة أسرك، ويا ليته لم يفعل .

طلب مني الحضور إلى مكان اعتقالك، كنت تجلس على كرسي أبيض بلاستيكي، قد عصبت عيناك .

بدأ محمود يسألك وبكلّ هدوءٍ خلال استجوابه لك عن المجزرة، التي حدثت خلال اقتحامكم .

– كيف استطعت ذبح الأطفال هكذا وبكل بساطة ؟؟

أجبته أنت وبكَ ثقة وبرود أعصاب :–

– لم أذبحْ، كنت أنفذ أوامر فحسب، أنا لم أذبح، لم ألطخ يداي بالدماء، أما جنودي فقد كانوا ينفذون أوامر أكبر مني ومنهم .

انهرت أنا بالبكاء، بكيت بصوتٍ مسموع، يا لخيبتي بك ياغالي، يا لعمق خيبتي، كنت أعرف أنّك تغيّرت، ولكن ليس إلى هذه الدرجة الوضيعة .

عرفت أنت يومها صوت شهقتي على الفور، تلعثمت كثيراً، وطلبت من محمود أن يرفع العصبة من على عينيك، أشرت إلى محمود طالبة منه ذلك .

رفع محمود العصبة من على عينيك، ومضى وتركنا لوحدنا .

٨/كانون الاول/٢٠١٤

...

كم أصبحت اليوم عنّي غريب

جلست قبالتك ساعة أبكي وأنتحب، لم أكن أبكيك، كنت أبكى نفسي وخيباتي المتتالية، كنت أبكي كل أولئك الأطفال، الذين ماتوا ذبحاً وقصفاً وجوعاً، وأنت تنظر إليّ بملئ عينيك، لم تقل ولو كلمة، حاولت أن أسألك أي سؤال، لكني لم أستطع، صوتي غادر حنجرتي، وكل تلك اللغات التي تعلمتها، غادرتني أيضاً .

في النهاية أعطيتك جهازي المحمول، فتحت لك ملف الصور، صور أطفال مذبوحة، مشوهة، صور جثث قد ملأت الطرقات .

بدأتُ أقلّب لك بالصور، وروحي تعتصر ألماً وخيبة، نظرت إليك بصعوبة، دموعي كانت تملأ روحي وعيوني .

صرختُ بكَ : هل هذا إحياء للوطن ؟؟

لكنّك سكتت، حافظت على هدوئك، لم تقل أي شيء .

فقدتُ أعصابي، بدأت أضربك بيداي على صدرك، وأقول :

– أتوسل إليك هل هذا هو حبك للوطن ؟؟ وهل أنت راضٍ عن كل هذه الدماء التي سفحت ؟

أبعدتني عنك وبقوة كبيرة، كدت ترميني أرضاً :–

– هؤلاء الأطفال سيدخلون الجنة، لقد ارتاحوا من حياتهم، فلماذا أنت غاضبة بهذا الشكل ؟

شهقتُ من فرط دهشتي، من هول صدمتي :–

– وما شأنك أنتَ بحياتهم ؟؟ منذ متى نصّبت نفسك ملكاً للموت ؟ تسرق من طفلٍ رضيعٍ زجاجة حليبه وحياته، باسم أسيادك .

أجبتني بهدوء :–

– حبيبة. . . . حبيبتي، السياسة لعبة قذرة لن تفهميها يوماً، أنا لا أريد قتل الطفولة، لكن لابد أن يحدث هذا من أجل الوطن .

– الوطن. . . .الوطن. . .الوطن. . . كفاك ياغالي .

أجبتني بغضب :–

– نحن أسياد الوطن، نحن الذين صنعنا الوطن وحميناه، ومهما كان الثمن سيبقى لنا من أنتم حتى تحاولوا إبعادنا عن شيءٍ هو ملكنا بالأساس، الكرسي و المناصب والأموال والأرض، نحن أصحاب الحق .

لم أعرف ماذا أقول لك، شللت، منذ متى والأوطان ملكاً لأشخاصٍ دون آخرين، أو لطائفةٍ دون أخرى .

بكلامك ذاك قتلت غالي الذي يعيش في داخلي، لم أعد أهتم إن مات غالي الذي أمامي أم لا .

أعدتُ عصبة عينيك، وأنت جالس على كرسيك لا تتحرك أي حركة .

ماذا فعلوا بك ؟؟ كيف غسلوا دماغك بتلك الطريقة القذرة ؟

وكيف أصبحت اليوم عني أيها الحبيب. . .غريب. .

...

قرار

كيف أصبحت هكذا ياغالي ؟ كيف قتلوا غالي داخلك ؟

وهل أستطيع أن أفكر بكَ حبيباً بعد اليوم ؟

كيف لجزارٍ أن يسكن قلبي مع حبيب ؟؟ وأيّهما أنت ؟

هل أنت غالي حبيبي، الذي كان من المفترض أن أتزوجه وأعيش معه عمري كله يوماً بيوم، أم أنت ذاك الجزار الخبيث الذي يقتل كل ما أمامه، من أجل الحفاظ على سيادته .

أيقنتُ أخيراً أنكَ لست هذا و لا ذاك، أنت خارج عن حدود المعقول، أنت سفاح غريب عني، أول ما قتله هو نفسه، وآخر ما قتله هم أولئك الأطفال .

كيف تستطيع أن تنظر، وتسمع توسلات طفلٍ يموت نحراً ؟

وهل كان جندك يتقنون النحر ؟ هل كانت الناس تتعذب عند ذبحها ؟

هل كنتم تشحذون سكاكينكم وسيوفكم قبل الذبح ؟ ولِمَ لم تقتلوا الناس رمياً بالرصاص ؟ أم أنّ سياسة التخويف والرعب هي سياستكم ؟

هل كانت العناية الإلهية تتدخل لتخفف آلامهم ؟

لم يوقظني من تلك الأفكار التي أصابتني بالدوار، سوى صوت محمود .

كلمات محمود لا زالت إلى اليوم عالقة في جرح الذاكرة، تزيد من ذاكرتي وجعاً و عفونة .

قال محمود :-

- غالي متورط في دماءٍ كثيرة. بطريقةٍ أو بأخرى هو المسؤول عن مجزرة الأسبوع الماضي، وقد اعترف بلسانه أنه أعدم بالرصاص أناس كثر، أعتقد أنّ موته سيكون العقوبة الأقل التي يستحقها .

كنت أسمع محمود و لا أسمعه، لم يعد يعنيني ما يقول، فأنت الآن ميت داخلي .

لا يعنيني إن كنت ستحيا خارجي أم تموت،كنت لا أستطيع السيطرة على دموعي، دموعي كانت تنهمر على خيبتي فيك،على تلك المسافة التي فصلتنا، ثم أعادتك إليّ رجلاً غريباً لا أعرفه .

قال محمود :-

- غالي سيُعدم على كل جرائمه التي اقترف، لن نعذبه، مع أنه يستحق ذلك. على كلٍّ إن كنتِ تريدين إنقاذه، فها هو مفتاح المنزل الذي أحتجزه فيه، ولكِ الحرية .

وطبعاً مهما كان الذي سيحدث بعد ذلك، سيظل سراً في قلبي يموت معي إلى أن أموت .

...

ثقة

سألت محمود ذات يوم، لمَ أعطيتني مفتاح زنزانة غالي؟ ألمْ تخف أن أضعف ؟

ابتسم محمود، ونظر إليّ ثمّ قال :-

- كنت واثقاً بكِ يا حبيبة. وأعرف أنّه من المُحال، أن تخوني مبادئك وقضيتك من أجل غالي. كان لابد لي من أترك القرار لكِ، حتى لا تلوميني في يومٍ من الأيام على موت غالي. كنت أريد أن تصلي إلى قناعتك بصحة ما فعلناه، دون أن يكون ذلك واقعاً مفروضاً عليك. لكنني أعرف حبيبة جيداً، وأعرف الطريقة التي تفكر بها حبيبة، لذا كنت أرى قرارك أمام عيني كما أراك الآن .

كلمات محمود تلك كانت شباك التنفس الجديد، الذي فتحته الحياة لي بعد اختناقٍ طويل .

لا شئ في الحياة أجمل من أن تكون إنسان على قيد قضية، تموت وتحيا لأجلها .

وقضية الوطن كانت هي قضيتي .

...

المفتاح

أمسكتُ المفتاح، تسمّر نظري عليه، قلّبته بين يدي كثيراً، توقفتُ عن التفكير .

يجب عليّ أن أفعل أي شئ،عليّ أن أقتل ضميري وأنقذك .

أو أن أقتلك وأقتل روحي معك للمرة الألف، لكني لا أستطيع أن أفعل أي شئ .

خانتني اللحظات، وعصفت بي مشاعري .

لا شئ أستطيع أن أفعله سوى الانتظار، لا زال المفتاح في يدي، يحرق أعصابي كم تمنيت لو أنّه سكيناً، لأقتل نفسي و أرتاح .

بالرغم من أنه مجرد مفتاح، إلا أنه كاد يقتلني،ما أصعب هذا القرار !

هل يجب أن أنتظر الساعة التي ستموت فيها ؟ أم أن آتي إليك وأنقذك ؟

أيّهما هو القرار الصحيح ؟؟

– سمعتُ قرع الباب، أفقتُ من ذهولي .

– مَنْ الطارق ؟

وصوت طفولي برئ يجيبني (إيناث)، كانت إيناس .

إيناس ابنة جيراننا الصغيرة، جاءت لأعطيها دواءً مسكناً، إيناس صغيرة جداً، صغيرة لتفقد أحد أطرافها، وتعيش فتاة يتيمة مبتورة طوال عمرها . توفي والدها عندما كانت في الثانية من عمرها بسبب القصف.

اعتادتْ أن تأتي إيناس بين الحين والآخر إلى منزلي، تطلب مني بعض الأدوية لها أو لوالدتها . وكانتْ أيضا صديقتي، وابنتي المدللة.

كنا نلعب معاً كل الألعاب التي نحبها، كانت إيناس تكلمني وإنا غارقة في صمتي، لا أنصت لها، ولا أعي ما تقوله .

تركتني إيناس لذهولي، وبدأت تجوب العيادة وتلعب، ثم تقدمت نحوي ببراءة، قالت لي:

– دكتورة حبيبة، هل من الممكن أن ألعب بهذا المفتاح ؟

و أشارت إلى يدي، كانت إيناس رسالة القدر لي، في تلك اللحظة قررتُ أن أفعل الصواب، أعطيتها المفتاح .

حملتها طلبت منها أن ترمي المفتاح من النافذة، وبأقسى قوة تستطيع .

رمتْ إيناس المفتاح، ورمتْ كل أحاسيسي معه، لكن ضميري عندها كان مرتاح جدا .

شعرت لوهلةٍ بأن كل الأطفال الذين ماتوا، يتشكرونني ويرسلون لي تحية سلام وهم في جنة ربهم .

شعرت بأنني فعلت الصواب، ولو أنه كان تمزيقاً لروحي .

...

دعاء

كنت دوماً أتمناكَ قريباً مني، لكن لم يكن بتصوري أنك ستقترب مني كثيراً، حتى تدفن في نفس قريتي .

لا زلت كلّ يوم أدعو لك بالمغفرة، لكني لا أجرؤ على زيارة قبرك، كنت أخاف كثيراً، أخاف منك، أخاف من نفسي، تعافيتُ قليلاً من صدمتي، بدأت العودة تدريجياً إلى عملي، لكني لم أعد إلى الحياة .

لعلّ أكثر ما كان ينسيني ألمي، هو ابتسامات الأطفال في المدرسة، التي أعمل بها كمعلمة للأيتام، وتشكرات المرضى الذين أداويهم عندما أعمل كطبيبة .

لكني كنت ميتة ياغالي، كنت تفاحتي، تفاحتي الحلوة التي أخرجتني من الجنة .

أدعو الله أن يغفر لك، وأدعوه أن لا يحاسبني بما لا أملك، لا أملك قلبي،

و لا أستطيع انتشالك منه .

(اللهم لا تحاسبنا بما لا نملك)

...

العدل الإلهي

كنت خائفة جداً، أنتظر الحكم النهائي الذي سيصدر بحقك، لكنه واضحاً جداً وظاهراً .

أتدري ؟؟ ربما كان الإعدام بالأساس قليلاً، على حجم الجرائم الهائلة التي اقترفت، لكن القدر كان له رأي آخر،وكان للعدالة الإلهية يد في ما حدث .

كنت شبه نائمة في سريري، عندما سمعت صوت طائرة حربية ؟؟

اعتدنا على القصف الصباحي، لكن زمجرتها ليلاً كان لازال طقساً جديداً، لا أعرف ما الهدف الذي جاءت لتقتله، قلت في نفسي اللهم أجرنا .

لكنها كانت كالعادة تخرق الأجواء وتقصف، هكذا بلا سبب لمجرد إدخال الرعب إلى قلوبنا، هل شعرت بالرعب ساعتها ياغالي ؟ هل خفت ؟

والطائرة هناك فوقك لا تميّز أحداً، كل الذين تحتها على الأرض يعدون هدفاً خالصاً لها، وكان مكان اعتقالكم هو الهدف العشوائي .

دوت الدنيا واستحال الليل نهاراً، مت إذاً يا غالي، مت على يد من تخليت لأجلهم عن كل شيء، ولم يعرفوا أنهم قد قتلوك، لم يأبهوا، حتى وإن عرفوا لم يكونوا ليأبهوا .

انتهت حياتك بنفس الطريقة، التي كنت تُنهي بها حياة الناس .

شعرت بنفس الألم ونفس الخوف والرعب، وأظن حينها أنك أدركت فعلاً، أنّ ظلمكم وعوانكم لا يستثني أحداً .

مت يا غالي أنت وكل من معك، لم يستطع رجال القرية استخراج الجثث من تحت الأنقاض إلا بعد أيام .

ولن أكتب هنا عن شعوري، فوالله هو لا يكتب، لا يكتب، لا يكتب .

...

عجز

عندما رأيت الكرسي المتحرك، وعلمت بأنّه سيكون رفيقي بدلاً عنك، شعرت بالعجز، يا إلهي كم أنا اليوم عاجزة، عاجزة عن أي حركة .

لا ألوم تلك القذيفة التي اختارت المشفى يومها لتنفجر فيه، فأنا عاجزة عن أن أحيى، لقد أصبحت عاجزة عن كل شيء إلا عن الكتابة .

بعد موتك بعامٍ واحد فقط، أصبت اصابة بليغة نتيجة القصف، وصرت أحتاج من يكون معي في كل لحظة، لم أعد قادرة على تدبر أموري لوحدي .

وحدها هنادي بقيت معي، ووحدها حروفي لم تتركني .

كنت أذكر أنني أعمل في مشفى القرية، والعرق يتصبب مني، حالات حرجة شديدة، وكالعادة دماء وأشلاء تملأ المكان .

ومحمود كان واقفاً أمامي، يساعدني بالقدر الذي يستطيع، صراخ وأصوات تأن، حالة أشبه بالقيامة، وفجأة انقطع ذلك المشهد، اختفى كل شئ من أمام عيني، وكأنّما كنت نائمة في كابوسٍ مزعج .

فتحتُ عيناي، كنت أشعر بألمٍ يخرق روحي، كنت أشعر روحي معلقة بين السماء والأرض، فلا هي تستطيع الصعود إلى السماء، ولا هي تستطيع أن تبقى في جسدي .

وجوه أطباء أشعر بأنّي ربما أعرفها، ومكان ليس عني بغريب، أين انا ؟ .

أحاول أن أفتح عيني، لكن كل شئ من حولي كان مجرد خيالات ضبابية، همسات تقول بأنّهم قد اضطروا إلى بتر قدماي معاً، لأن الإصابة بليغة جداً، كنت في حالة من الهذيان الروحي، أهكذا كان يتألم الجرحى بين يدي، وأنا أداويهم دون تخدير ؟

كان أولئك الأطفال إذاً على حق، عندما كانوا يرجونني أن لا أداويهم وأجعلهم يموتون، كان وجعاً صعباً جداً .

بترتْ ساقاي الاثنتين، نتيجة قصف المشفى الذي كنت أعمل فيها، وبتر محمود كله من الدنيا .

استشهد محمود لأنّ الإصابات كانت في صدره، واستطاعت الوصول إلى قلبه الطاهر، أما أنا فقد طال القصف قدماي.

وكل من كان في المشفى ساعتها واجه مصيراً أسوأ من الآخر. الكثير من الشهداء، الكثير من الجرحى، حالات كثيرة من بتر الأعضاء،

أحمد الله أن هنادي ساعتها لم تكن معي في المشفى .

كانت هنادي يومها في بيتي، تحضر لنا بسرعة بعض الأدوية المسكنة من المواد الطبية البسيطة المتوافرة لديها، بحكم أنها صيدلانية، ولو أنها كانت معنا كان مصيرها سيكون مؤلماً أكثر ربما .

لم أعرف في أي يومٍ حدث ذلك، ولا يهمني أيضاً في أي عام، فأنا حقاً لم أعد أهتم بالتواريخ، لم أعد أعتد بالوقت .

كل الذي سيحدث بعد ما جرى ما كان ليكون مهماً، أحتاج فقط أن أشفى من مأساتي، لذلك كتبت روايتي، ودون أن أكملها سأنهيها .

أنا بحاجةٍ إلى سطورٍ كثيرة، لكن الكلمات تودعني كلما حاولت أن أكتبها، أنا أخجل من نفسي، ومن وجع الوطن، أحتاج أن أنهي كل شيءٍ يحيى داخلي .

أحتاج أن أولد من جديدٍ دون ذاكرة،ولأنّني لا أستطيع أن أولد من جديد، مزقتُ كل التواريخ، حطمت كل الساعات،وأعلم تماماً أنّني بالنسبة للكلّ لا شيء .

و أعلم أنّ لا شيء أستطيع أن أفعله بكَ، إلّا أن أحزن. .

أنت يا طفلي، يا رجلي، يا أكثر صدفة مؤلمة بحياتي، يا كل الوجع وكل الألم .

يا حلماً لم يصر واقعاً، إلا بعد فوات الأوان .

ليتنا لم نلتقْ. .

ليت الأيام توقفت، ليتها لم تمشْ لتجعل منك جزاراً، سفاحاً .

أنتَ يا كلّ القلب ما الذي فعلوه بك ؟

وكيف أطماعك أنستك أنّك كنت في يومٍ ما إنساناً، تجرّدت من إنسانيتك قبل أن تتجرد منك روحك .

قررت أن تموت من أجل أُناس، لا همَّ لهم سوى حفنة من المال، ومقعد من منصب، قتلوك يا غالي، هم الذين قتلوك ولست أنا .

قد كنت ميتاً قبل أن تموت، بعدما كنت أنت حياة بأكملها، قتلوا فيك الحياة.

لكنهم لم ولن يستطيعوا أن يقتلوا، كل تلك الأوجاع التي عاشها الوطن .

ولم أستطع أنا أن أراك إنساناً من جديد، قررت أن أنهي كتاباتي لك، فكتاباتي بدأت تزيد عجزي .

وأنا أيضاً لا أريد أن أجعل من كتابتي هذه شحاذاً، أتوسل به عطف الناس، الله وحده يعلم أنني لم أحاول أن أشتري عواطف أحد، كتبت كل ما حدث بضميري .

لكن ما حدث هو الذي كان يبكي العواطف ويحرك الضمائر، وليس ما أكتب،

سأبدأ الكتابة من جديد، لكن هذه المرة لن أكتب عنك .

سأكتب في زمنٍ لا أعرفه، وعن مكانٍ أجهله .

لن أكتب عن نفسي، لن أقول مجدداً أسراري للورق .

وقفت أخيراً عاجزة أمام النهاية، لا شيء أستطيع قوله أخيراً، سوى أن أحمد الله ربّي على كلّ حال .

الحمد لله حمداً تطيب به روحي، لك الحمد يا الله، فوحدك تعلم حكمتك في كل الذي حدث .

ومهما بكيت على شامي يبقى قليلاً، فمن لم يرْ جمال بلادي، لم يرْ من جمال الدنيا شيئاً، ومن لم يشرب من ماء دمشق لا زال عطشاً .

وكلّ شخصٍ لم يشتم روائح ياسمين الشام وأرضها بعد المطر، لم تنتشي روحه .

(أبكي على شام الهوى بعيون مظلوم مناضل

وأذوب في ساحتها بين المساجد والمنازل

ربّاه سلّم أهلها واحمي المخارج والمداخل

وأحفظ بلاد المسلمين عن اليمائن والشمائل

مستضعفين فمن لهم ياربّ غيرك في النوازل

مستمسكين بدينهم ودمائهم عطر الجنادل

رفعوا الأكفّ تضرعوا عند الشدائد والزلازل

ياربّ صن أعراضهم ودمائهم من كل قاتل

وقفوا دروعاً حرّة دون البنادق والقنابل

نامتْ عيون صغارهم واستيقظت نار المعاول

لا عاش قاتلهم ولا دامتْ له يوماً أنامل

وعليه أصبح حوبة دمع الثكالى والأرامل

لله ربّ المشتكى ربّ الأواخر والأوائل

والله فوق المعتدي فوق الأسنة والسلاسل

وغداً يكون لأمّتي صرح تزينه المشاعل

وغداً إذا الحق اعتلى حتماً سيزهق كل باطل) .

أحبّ الشام كثيراً، وللأسف أحبّك أنتَ أيضاً ياغالي .

لكن الضمير هو الذي يجب أن ينتصر في نهاية معركة الإنسان مع الحياة .

أحبّك يا غالي، لكنّي أحبّ الوطن أكثر .

▪ تمت ▪

حبيبة – سوريا – في وقتٍ لم يحنْ . .

عندما تفوق قصصنا حدود الأدب . .

لا نستطيع أن نكمل ما بدأناه حتّى النهاية . .

هناك أمور أزلية لا نستطيع أن نحدد لها مصيراً . .

لذلك لم أستطعْ أن أكتب كلّ ما في داخلي . .

ففي داخلي فوضى عارمة . .

فوضى التحمت بكياني . .

فصنعت شبه قصة . . .

عن أناس شبه موجودين . .

في بلد لا زال شبه موجود . . .